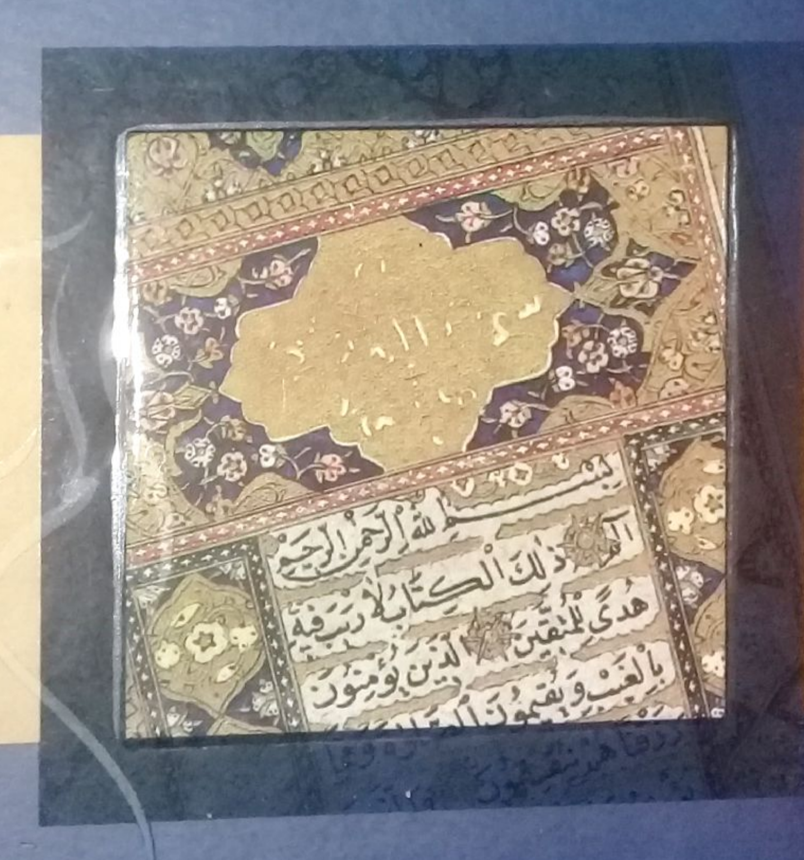
مُراعاةُ المقامِ

في التَّعْبيرِ القُرْآنيِّ



تأليف
الدكتور فاضل صالح السَّامرائي

دار ابن كثير


مراعاة المقام
في التعبير القرآني

○ الموضوع: لغة عربية
العنوان: مراعاة المقام في التعبير القرآني
تأليف: الدكتور فاضل صالح السامرائي

الطبعة الأولى

1436 هـ - 2015 م

ISBN 978-614-415-149-5



○ الطباعة: مطابع يوسف بيضون - بيروت / التجليد: شركة فؤاد البعينو للتجليد - بيروت

○ الورق: أبيض / الطباعة: لونان / التجليد: كرتونيه

○ القياس: 17×24 / عدد الصفحات: 200 / الوزن: 500 غ



دمشق - سوريا - ص.ب : 311
حلبوني . جادة ابن سينا . بناء الجابي - صالة المبيعات تلفاكس: 2225877 - 2228450
الإدارة تلفاكس: 2243502 - 2258541
بيروت - لبنان - ص.ب : 113/6318
برج أبي حيدر . خلف دبوس الأصلي . بناء الحديقة - تلفاكس : 01 817857 - جوال : 03 204459
www.ibn-katheer.com - info@ibn-katheer.com

مُراعاةُ المَقامِ

فِي التَّعْبِيرِ القُرْآنِيِّ

تأليف

الدكتور فاضل صالح السَّامرائي




بسم الله الرحمن الرحيم
﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾

المقدمة

الحمد لله أهل الحمد كله ، والصلاة والسلام على خاتم أنبيائه ورسله سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ومن دعا بدعوته واتبع هداه إلى يوم الدين .

وبعد :

إن مراعاة المقام في التعبير القرآني ظاهرة بينة ، فلا يكاد يخلو موضع من مواضع التعبير من مراعاة المقام . فهو أمر عام في عموم المواطن من الذكر والحذف ، والتقديم والتأخير ، والتوكيد وعدمه ، وفواصل الآي ، والالتفات ، واختيار لفظة على أخرى ، وغير ذلك من مواطن التعبير .

وقد مرت بنا أمثلة كثيرة فيما عرضنا له من التعبير في القرآن الكريم ، والمفسرون يذكرون ذلك في مواطن كثيرة من كتبهم .

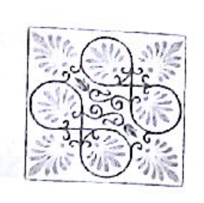
وفي هذا الكتاب ضربت له أمثلة على العموم ، ثم خصصت له أمثلة في موضوع الالتفات ؛ ذلك أن عددًا من الموضوعات خصصت لها أبوابًا في عموم ما كتبت كالتقديم والتأخير ، والتأكيد ، والتشابه والاختلاف ، والذكر والحذف ، وغيرها ، ولم أفرد للالتفات بابًا . فآثرت أن أذكر شيئًا من ذلك في هذا الكتاب .

ولا بدّ أن أذكر أن كل ما ذكرته في مراعاة المقام وفي عموم ما كتبت من الأغراض إنما هو غيض من فيض وليس استقصاء ؛ ذلك أن

الاستقصاء فيه وفي غيره متعذر لكثرته ، ولخفائه أحيانًا ، ولأن قسمًا منه يدركه أصحاب الاختصاص من أهل العلم دون غيرهم ، ولأن منه ما يخفى على أهل العصور المتقدمة ويظهر لمن بعدهم ، فإن القرآن لا يبلى جديده ولا يخلق من كثرة الرد. وقد يفتح الله على عبد من عباده ما لا يفتحه على غيره. وهو أعلم بعباده.

أسأله سبحانه أن يفتح لنا في كتابه فتحًا مباركًا ، وأن يرزقنا علمًا يُنتفَع به إنه سميع مجيب.

* * *



مراعاة المقام في التعبير القرآني

في الذكر والترك

إن القرآن الكريم يراعي المقام في التعبير في الذكر والترك.

فإن القرآن يراعي المقام في ذكر التعبير كما هو معلوم، وقد ضربنا لذلك أمثلة فيما عرضنا له من التعبير القرآني.

وقد يراعي المقام في ترك التعبير فيما يُظَن أنه سيذكره في سياقه.

وقد يكون الذكر عامًّا كما ذكرنا - مثلاً - في استعمال الوالدين والأبوين[1]، وكما ذكر في استعمال الريح والرياح، والأعين والعيون، وغير ذلك.

وقد تكون مراعاة المقام في الترك، فلا يذكر أمرًا فيما يظن أنه سيذكره، وكل ذلك لسبب، فهو إذا ذكر فإنما يذكر لأمر يقتضيه المقام، وإذا لم يذكر فإن ذلك لأمر يقتضيه الحال.

ومن مراعاة المقام في الذكر والترك مثلاً ما يأتي:

١ - إنه إذا ذكر الخلود لأهل الجنة فإنه لا يذكره إلا بصيغة الجمع (خالدين). ولم يذكر مرة الخلود لهم بالإفراد، فلم يقل مرة (خالداً)؛

---

(١) انظر (على طريق التفسير البياني) ج٢ - تفسير سورة لقمان.

ذلك أن الوحدة عذاب ولو كانت في جنات النعيم ، وأن الاجتماع من مستلزمات السعادة .

قال تعالى : ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [النساء : ١٣] .

وقال : ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة : ٨٢] .

وقال : ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التغابن : ٩] .

وأما أصحاب النار فيذكر الخلود لهم بصيغة الإفراد وبصيغة الجمع ، فيكون العذاب بالوحدة ، وقد يكون العذاب بالجمع المستلزم للإهانة ، أو لغير ذلك من دواعي العذاب بحسب ما يقتضيه المقام .

قال تعالى : ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا﴾ [النساء : ١٤] .

وقال : ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ﴾ [التوبة : ٦٣] .

فهذا بصيغة الإفراد .

وقال : ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة : ٣٩] .

وقال : ﴿فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [النحل : ٢٩] .

وقال : ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة : ٢٥٧] .

وهذا بصيغة الجمع.

٢ ـ ومن ذلك أنه إذا ذكر أزواج المؤمنين من النساء المؤمنات ، وذكر إدخالهن الجنة لم يذكر معهن الحور العين، فلم يرد في القرآن الكريم ذكر الحور العين مع أزواج المؤمنين مراعاة لنفسيتهنّ ومشاعرهنّ. فإن المرأة لا ترغب أن تكون معها شريكة في زوجها ولو كانت من الحور العين.

قال تعالى: ﴿ جَنَّتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ﴾ [الرعد: ٢٣].

وقال: ﴿ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴾ [يس: ٥٦].

وقال: ﴿ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴾ [الزخرف: ٧٠].

٣ ـ ورد في القرآن الكريم ذكر كلمة (عالم) ، وكل ما ورد منها إنما هو في علم الله للغيب والشهادة ، إلا قوله في سبأ: ﴿ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ﴾ [سبأ: ٣] ، وقوله في فاطر: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [فاطر: ٣٨] ، وقوله في سورة الجن: ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ [الجن: ٢٦].

فقد ذكر فيهن علم الغيب وحده ولم يقرن علمه بالشهادة ؛ وذلك أن كل ما ذكر فيه علم الشهادة مع الغيب فقد ذكر فيه ما يشهد ويبصر مع الغيب ، وذلك كقوله سبحانه في سورة الأنعام: ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام: ٧٣] ، ذلك أنه قال: ﴿ وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ . . . عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام: ٧٢ ـ ٧٣] وإقامة الصلاة مما يشهد ، والحشر إنما يكون للجزاء على الاعتقاد والعمل ، والسماوات والأرض مشاهدان.

فناسب ذكر الغيب والشهادة.

وكقوله سبحانه: ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ٩٤]، ذلك أنه لما قال: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ والعمل مما يشاهد قال ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾.

ونحوه قوله في سورة الرعد: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٩]، ذلك أنه قال: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: ١٠ ـ ١١].

فقد ذكر من أسرّ القول ومن جهر به، وإسرار القول من الغيب. وأما الجهر فليس من الغيب. وكذلك المستخفي بالليل والسارب بالنهار، فالمستخفي بالليل غائب، والسارب بالنهار مشاهد.

والمعقبات غيب، والذي يحفظه من الخلق مشاهد.

وكذلك كل ما ذكر فيه عالم الغيب والشهادة.

وأما قوله في سبأ: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ﴾ [سبأ: ٣] فإن الكلام فيه على مجيء الساعة، وهو غيب محض. قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٣].

ونحو ذلك ما جاء في فاطر، فإن السياق في الكلام على اليوم الآخر وما أعدّ فيه للمؤمن والكافر، وذلك من الآية الثانية والثلاثين إلى الآية السابعة والثلاثين (٣٢ ـ ٣٧) ثم قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [فاطر: ٣٨]. وما في الساعة وما في الصدور غيب وليس مشاهدًا.

ونحو ذلك ما ورد في سورة الجن ، فقد قال : ﴿ قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ . . . ﴾ [الجن : ٢٥ ـ ٢٧] .

فقد أمر الله رسوله أن ينفي عن نفسه العلم بموعد الساعة أهو قريب أم بعيد ، وهو غيب وليس من الشهادة .

فناسب كل تعبير موضعه .

٤ ـ قال سبحانه في سورة البقرة : ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [البقرة : ١١٠] .

وقال في سورة المزمل : ﴿ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴾ [المزمل : ٢٠] .

فقال في آية البقرة : ﴿ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ ﴾ .

وقال في المزمل : ﴿ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ ﴾ ؛ ذلك أنه زاد على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة قراءة القرآن والقرض الحسن .

فناسب زيادة الخير وعظم الأجر .

٥ ـ قال تعالى في سورة البقرة : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [البقرة : ١٧٢] .

وقال في سورة النحل : ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [النحل : ١١٤] .

فقال في البقرة : ﴿ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ .

وقال في النحل : ﴿ وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ .

فأمر بالشكر لله في آية البقرة.

وأمر بشكر نعمة الله في آية النحل.

ذلك أن الكلام في البقرة على الله، وذكر أن من الناس من يتخذ أندادًا من دون الله فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠].

وأما في النحل فالسياق في ذكر النعم وذكر من كفر بالنعم وعاقبة ذلك فقال: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

وقد تكرر ذكر النعم في سورة النحل في مواطن عدة، حتى أن سورة النحل تسمى سورة النعم لما عدد الله تعالى فيها من النعم على عباده[١]، من نحو قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١٨]، وقوله: ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ [النحل: ٧٢]، وقوله: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [النحل: ٨٣] وغيرها.

فناسب كل تعبير موطنه الذي ورد فيه.

٦ ـ قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ

---

(١) انظر روح المعاني ١٤/ ٨٩.

مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ﴾ [آل عمران: ١٤] .

فذكر حب الشهوات الذي زُيِّنَ للناس ولم يذكر حب النساء للرجال لئلا يخدش حياءهن. غير أنه دخل النساء في ذلك مع أنهن لم يذكرن وذلك في ذكر البنين ، فإن النساء يحببن أن يكون لهن بنون كما يحب الرجال.

وفي ذكر القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، فإنهن قد يفقن الرجال في حب الذهب والفضة.

وقد يكون في غير ذلك مما ذكر من الخيل وغيره.

وقوله (للناس) يشمل الرجال والنساء.

فدخل في حب الشهوات الرجال والنساء ، وإن لم يذكرن مراعاة لحيائهن.

٧ ـ قال تعالى في سورة النساء: ﴿وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٧٥] .

لقد قال في هذه الآية: ﴿أَخۡرِجۡنَا مِنۡ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا﴾ فنسب الظلم إلى أهلها ، ولم يقل (من هذه القرية الظالمة) ؛ وذلك لأن المقصود بها مكة فلم ينسب الظلم إليها تشريفًا لها.

جاء في (روح المعاني) في هذه الآية: «والوصف صفة قرية وتذكيره لتذكير ما أسند إليه. . .

ولم ينسب الظلم إليها مجازًا كما في قوله تعالى: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةِۭ بَطِرَتۡ مَعِيشَتَهَاۖ﴾ ، وقوله سبحانه: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ﴾ إلى قوله عز وجل ﴿فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ﴾لأن المراد

بها مكة. . . فوقرت عن نسبة الظلم إليها تشريفًا لها شرفها الله تعالى»(١).

ولذا قد يصف ربنا القرى بالظلم فيقول: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ [الأنبياء: ١١]، أو يقول: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ [الحج: ٤٥]، وكقوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ [الحج: ٤٨].

إلا مكة - كما قيل - تشريفًا لها وتعظيمًا.

٨ - قال تعالى في سورة النساء: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ. . .﴾ [النساء: ١١٧ - ١١٨].

وقال في سورة الحج: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الحج: ٣ - ٤].

وقال في سورة الصافات: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ٦ - ١٠].

* * *

وصف الشيطان في آيتي النساء والحج بالمريد.

ووصفه في آية الصافات بأنه مارد.

والمريد والمارد والمتمرد الخارج عن الطاعة(٢).

---

(١) روح المعاني ٢٥/ ٨٢.

(٢) روح المعاني ٥/ ١٤٩.

و(مارد) اسم فاعل من مرد.

و(مريد) صيغة مبالغة على وزن (فعيل)، أوصفه مشبهة، وهو أشد وأعتى من المارد، وإن كان أهل اللغة يجعلونهما واحدًا[١].

ويدل على ذلك ما وصف به الشيطان في كل مما ورد، فقد قال في سياق آية النساء: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١١٧ - ١١٩].

فذكر من صفات العتوّ ومحاربته لبني آدم ما لم يذكره في المارد.

والنصيب المفروض، أي النصيب الواجب الذي اقتطعه لنفسه وهم الكفرة والعصاة[٢].

وكذلك ما ورد في آية الحج.

فوصفه في الموضعين بأنه مريد.

وأما ما ورد في الصافات فلم يذكر ما يتعلق عتوه بالإنسان، وإنما ذكر تعالى حفظه السماء من كل شيطان مارد، وأنهم يقذفون من كل جانب دحورًا.

فذكر أنهم لا يسّمّعون إلى الملأ الأعلى، فهم أضعف من ذلك، وأنهم يُقذفون من كل جانب، وأنهم دحور أي مطردون مبعدون.

فذكر في صفة الشيطان المريد أنه حقق شيئًا مما يريد، فقد ذكر في

---

(١) انظر لسان العرب (مرد).
(٢) البحر المحيط ٣/ ٣٥٢.

آية النساء أن من الناس من يدعون الشيطان المريد الذي لعنه الله.

وذكر في آية الحج أن من الناس من يتبع كل شيطان مريد.

فهم حققوا شيئًا مما يريدون وهم دائبون على ذلك.

وأما من ذكرهم في صفة المارد فإنهم أضعف وأذلّ من أن يفعلوا أي شيء يريدونه. فإنهم لا يسّمّعون إلى الملأ الأعلى، وإنهم يقذفون من كل جانب، وإنهم مطرودون مبعدون.

فناسب وصف الأولين بالشيطان المريد؛ وذلك أنه حقق شيئًا مما يريد، وأنه يحقق شيئًا مما يريد في إضلال بني آدم.

وناسب وصف من في الصافات بالشيطان المارد؛ لأنه لا يحقق شيئًا مما يريد.

هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى أنه سبحانه إذا حفظ السماء من الشيطان المارد فإن حفظها من الشيطان المريد أولى. فذكر الشيطان المارد ليدل على أن حفظها ممن هو أعتى أولى، وذلك نظير حفظ الجسم من المكروبات، فإنه إذا كان حفظ الجسم من المكروبات الضعيفة مطلوبًا فان حفظه من المكروبات التي هي أقوى وأشد أولى. والله أعلم.

٩ - قال تعالى في سورة النساء: ﴿ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ مِنۡهُمۡ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَۚ وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَٱلۡمُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤۡتِيهِمۡ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٦٢].

وقال في سورة الحج: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ وَٱلۡمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ [الحج: ٣٤ - ٣٥].

فقد قال تعالى في آية النساء: ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ بذكر النون في (المقيمين).

وقال في آية الحج: ﴿وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ بحذفها.

فما السبب؟

والجواب أن آية النساء إنما هي في الذين آمنوا من أهل الكتاب.

وأما آية الحج فهي في المسلمين الذين يؤدون شعائر الحج، وهي في سياق الحج ومناسكه. فقد ذكر قبل الآية المسافرين إلى الحج فقال: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٧].

ثم ذكر مناسك الحج والذبح فيه.

فهم في سفر، فلعل حذف النون إشارة إلى القصر في الصلاة أو الجمع فتقلّ أوقاتها أو ركعاتها.

ثم انظر من ناحية أخرى كيف وصف من آمن من أهل الكتاب بقوله: ﴿وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، ووصف المسلمين الذين يؤدون مناسك الحج بقوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾؛ ذلك أن الكلام في مناسك الحج والذبائح والهدي وهذا ليس من الزكاة وإنما هو في الإنفاق فيما يتعلق بالذبح والمناسك.

جاء في (روح المعاني): «﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ في وجوه الخير ومن ذلك إهداء الهدايا التي يغالون فيها»[١].

فناسب كل تعبير موضعه الذي ورد فيه.

---

(١) روح المعاني ١٧/ ١٥٥.

١٠ ـ قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [الأنعام: ٤٨ ـ ٤٩].

وقال في الكهف: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَـٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَـٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَـٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا﴾ [الكهف: ٥٦].

فاختلف التعقيب في كل من الآيتين مع أن مبتدأهما واحد وهو قوله سبحانه: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾.

فذكر في الأنعام عاقبة المؤمنين والكافرين؛ وذلك أنه ذكر قبلها عاقبة المكذبين بالرسل في الدنيا فقال: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥].

وذكر في الكهف الذين يجادلون بالباطل فقال: ﴿وَيُجَـٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَـٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾؛ ذلك لأنه ذكر قبلها صفة الجدل في الإنسان على العموم فقال: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤].

فكان كل تعبير مناسبًا في موطنه الذي ورد فيه.

١١ ـ قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ [الأعراف: ٤٣].

وقال في الحجر: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧].

فذكر الإخوان في آية الحجر ولم يذكرهم في آية الأعراف، ذلك أنه لما ذكر أن المتقين على سرر متقابلون ناسب أن يذكر أخوّتهم بعضهم لبعض فقال: (إخوانًا).

ولم يذكر اجتماعهم والتقاءهم في آية الأعراف.

فناسب كل تعبير موضعه.

١٢ ـ قال سبحانه في سورة يونس: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ... فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣١].

بإفراد السماء.

وقال في سورة سبأ: ﴿۞قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ قُلِ ٱللَّهُۖ﴾ [سبأ: ٢٤].

بجمع السماء فقال: (السماوات).

فقال في آية يونس: ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ﴾ لما أفرد السماء.

ذلك أنهم يعلمون الذي يرزقهم من السماء والأرض، وأنه هو الله.

ومن معاني الرزق من السماء: المطر.

وقد سمى الله السحاب سماء فقال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ...﴾ [العنكبوت: ٦٣].

وقال: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ﴾ [ق: ٩].

وسمى المطر رزقًا فقال: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الجاثية: ٥].

فلو سألتهم من يرزقهم من السماء والأرض لأجابوا: الله الذي يرزقنا.

وأما في آية سبأ فقد قال: ﴿۞قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ ، وهم لا يعلمون أن الرزق من السماوات وأنه يقدره ربنا وينزله من سماء إلى سماء حتى يصل إليهم.

ولذا أمره هو أن يقول إن ذلك هو الله فقال: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾.

فاختلف الأمران.

جاء في (التفسير القيم) لابن القيم في آية يونس أنهم لما «كانوا مقرّين بهذا كله حين الاحتجاج به عليهم أن فاعل هذا هو الله الذي لا إله غيره...

ولهذا قال بعد أن ذكر ذلك من شأنه تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ أي لا بد أنهم يقرون بذلك ولا يجحدونه....

ولم يكونوا مقرين ولا عالمين بنزول الرزق من سماء إلى سماء حتى تنتهي إليهم، ولم يصل علمهم إلى هذا فأفرد لفظ السماء هنا...

أما الآية التي في سبأ فلم تنتظم إقرارهم بما ينزل من السماوات، ولهذا أمر رسوله بأن يتولى الجواب فيها. ولم يذكر أنهم المجيبون المقرّون فقال: ﴿۞قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ﴾.

ولم يقل: (سيقولون الله).

فأمر تعالى نبيه ﷺ أن يجيب بأن ذلك هو الله وحده الذي ينزل رزقه على اختلاف أنواعه ومنافعه من السماوات السبع»[١].

١٣ ـ قال تعالى في سورة يونس: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [يونس: ٧٥].

---

(١) التفسير القيم ٣٠٦ ـ ٣٠٧.

وقال في سورة المؤمنون: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا عَالِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٥ ـ ٤٦].

ونود أن نشير إلى أمرين في هذين التعبيرين:

١ ـ فقد قدم المرسل إليهم في آية يونس وهم فرعون وملؤه على الآيات فقال: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا﴾.

وقدم الآيات في (المؤمنون) على المرسل إليهم فقال: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾.

٢ ـ وذكر السلطان في آية المؤمنون فقال: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ ولم يذكره في آية يونس.

فلم ذاك؟

١ ـ فنقول إن تقديم المرسل إليهم في آية يونس مناسب للسياق الذي وردت فيه، فقد قال قبل هذه الآية: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [يونس: ٧٤].

فقدم المرسل إليهم بقوله: ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ على البينات وهو قوله ﴿فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾.

فناسب تقديم المرسل إليهم وهم فرعون وملؤه في الآية الخامسة والسبعين.

وأما في سياق آية المؤمنون فإنه ذكر كتاب موسى بعد هذه الآيات فقال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٩].

والكتاب من الآيات وفيه آيات، فناسب تقديم الآيات في آية المؤمنون.

٢ ـ وأما ذكر السلطان في آية المؤمنون وهو قوله: ﴿ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ﴾ وعدم ذكره في آية يونس فهو المناسب لسياقه أيضًا.

فقد قال في آية (المؤمنون): ﴿ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٦].

وذكر استعباد فرعون لبني إسرائيل فقال: ﴿ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَـٰبِدُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٧].

واستعباد الأقوام إنما يكون بالسلطان والقهر.

والسلطان علو وهو أعلى من مجرد العلو، فالسلطان أعلى شيء.

فناسب ذلك ذكر السلطان، فهو مناسب لذكر علوهم واستكبارهم واستعبادهم لقوم موسى.

وليس مثل ذلك مذكورًا في يونس.

قد تقول: لقد قال أيضًا في يونس: ﴿ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾.

وقال عن فرعون: ﴿ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [يونس: ٨٣].

فنقول: إنه قال فيهم: ﴿ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ والإجرام ليس سلطانًا، وذكر أن فرعون عالٍ في الأرض، ولم يذكر استعباده لقوم موسى، والاستعباد للأقوام أدلّ على السلطان والقهر، فناسب ذلك ما ورد في المؤمنون.

وذكر في آية يونس أنهم كانوا قومًا مجرمين، وذكر عن فرعون إنه لمن المسرفين، وهو مناسب لما ورد في السورة من حالات إجرام فرعون وإسرافه من فتنته بني إسرائيل واتباعه لبني إسرائيل بغيًا وعدوًا.

فقد قال: ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ [يونس: ٨٣].

وقال: ﴿ ۞ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ﴾ [يونس: ٩٠].

فناسب كل تعبير سياقه الذي ورد فيه.

وهناك لطيفة أخرى في آية المؤمنون فقد قال: ﴿ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ فذكر أُخوّته لهرون، ذلك أنه ذكر بعد هذه الآيات ابن مريم وأمه فقال: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةٗ وَءَاوَيۡنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبۡوَةٖ ذَاتِ قَرَارٖ وَمَعِينٖ﴾ [المؤمنون: ٥٠].

فذكر النسب: (الابن) و(الأم) حتى إنه لم يقل (عيسى وأمه) بل ذكر البنوّة، فناسب ذلك ذكر الأخوّة بين موسى وهرون فقال: ﴿ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ﴾. ولم يذكر مثل ذلك في يونس.

وهو من لطيف التناسب.

١٤ ـ قال تعالى في سورة هود: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ﴾ [هود: ٤٦].

وقال قبلها وبعدها (قيل) وذلك أن هذا حكم شرعي وهو لله حصرًا[1].

١٥ ـ ذكر ربنا في قصة سيدنا يوسف أنه عندما عبر الرؤيا للسجينين معه أنه قال للذي ظن أنه ناج منهما: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ﴾ [يوسف: ٤٢].

وفي هذا الأمر دلالة عظيمة على أن الشيطان قد يكيد للمؤمن ولا يعلم أن هذا الكيد قد يكون فيه نفع عظيم للمؤمن، ولو علم عاقبة ذلك الكيد لم يفعله ولفعل ضده. فإن من أثر هذا الإنساء أن يوسف عليه

---

(١) انظر (على طريق التفسير البياني ج٣).

السلام لبث في السجن بضع سنين إلى أن رأى الملك رؤياه المشهورة فلم يعبرها له أحد حتى تذكر السجين الناجي سيدنا يوسف فعبر له الرؤيا وكان عاقبة ذلك أن صار سيدنا يوسف عزيز مصر. فكأنه استبقاه الله ليكون عزيز مصر. ولو أخرج من السجن بعد نجاة السجين لذهب في الأرض ولم يعلم أحد أين ذهب ولا أين هو فلم يحظ بهذا المنصب الرفيع فكان كيد الشيطان فيه نفع عظيم لسيدنا يوسف وذلك من قدره سبحانه فازداد الشيطان إثمًا إلى آثامه بهذا الكيد وعظمت منزلة نبي الله يوسف.

ولو علم الشيطان عاقبة ذلك الكيد لعجل في تذكير السجين، والله بكل شيء عليم.

وقريب من ذلك ما ورد في سورة الكهف في قصة سيدنا موسى والرجل الصالح، فإن الله أخبر سيدنا موسى أنه يجد الشخص المطلوب وهو الخضر حيث يفقد طعامه[1]، فمضيا في السفر للبحث عنه، وقد أنسى الشيطان فتى موسى طعامه في موضع ما. فلما بلغ منهما النصب مبلغًا كبيرًا طلب موسى الطعام قائلاً لفتاه: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ [الكهف: ٦٢].

فعند ذلك تذكر الفتى أمر الطعام فقال له: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾ [الكهف: ٦٣].

فقال له موسى: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ [الكهف: ٦٤].

فوجدا الشخص المطلوب في ذلك المكان.

---

(١) انظر تفسير (فتح القدير) ٣/ ٢٨٧.

ولو علم الشيطان ذلك لما كان أنساه ، ولكان يتركه يسير في الأرض للبحث عن سيدنا الخضر .

فدل ذلك على جهل الشيطان ، وأنه قد يكون في كيده نفع للمؤمن .

١٦ ـ قال تعالى في سورة يوسف : ﴿ تَاللَّهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴾ [يوسف : ٨٥] .

هذه الآية قالها إخوة يوسف لأبيهم حين قال : ﴿ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ وقد ابيضت عيناه من الحزن .

والمعنى : أنك لا تزال تذكر يوسف حتى تكون مريضًا مرضًا شديدًا مشفيًا على الهلاك أو تهلك .

وأصل التعبير (لا تفتأ) وحذفت (لا) جوازًا ، وهذا قياس في جواب القسم تقول : والله أذهب ، أي : لا أذهب ، لأن المضارع المثبت لا بد له من اللام في جواب القسم[١] أي : لأَذهب أو لأذهبن .

واختار الفعل (تفتأ) على (تزال) ونحوه ، ذلك أن من معاني (فتىء) : نسي ، «يقال : (فتئت عن الأمر) إذا نسيته وانقدعت»[٢] .

ويأتي بمعنى (سكّن) وأطفأ النار . قال الفراء : «فتأته عن الأمر سكّنته ، وفتأت النار أطفأتها»[٣] .

ومعنى قوله ﴿ تَاللَّهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ ﴾ «أي لا تنسى ذكره على تقادم العهد ، ولا تسكّن نفسك ولا تكفّ عن ذكره ولا تطفئ ما في جوانحك من نار التعلق به . وهو أنسب فعل في هذا المقام»[٤] .

---

(١) انظر معاني النحو (حذف (لا) من جواب القسم) ٤/ ١٥٤ ـ ١٥٥ .
(٢) لسان العرب (فتأ) .
(٣) تاج العروس (فتأ) .
(٤) معاني النحو ١/ ٢٢٦ ـ ٢٢٧ .

وحذف (لا) من جواب القسم ، فلم يقل : (تالله لاتفتأ) ؛ ذلك أن الذكر آكد من الحذف ، وهم غير متأكدين من أن الأمر سيكون على ذلك ، وهو لم يحصل . فلما كان الأمر غير مؤكد، وأقسموا على أمر غير متأكدين منه حذف (لا) من جواب القسم مع إرادته في المعنى ؛ لأنه غير مؤكد.

وهذا من لطيف مراعاة المقام وبديعه .

١٧ ـ وجاء في سورة يوسف قول سيدنا يوسف لأبيه وإخوته من بعدما جاء بهم وخروا له سجّدًا : ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓ﴾ [يوسف : ١٠٠] .

فقال : ﴿إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ﴾ ولم يقل : (إذ أخرجني من الجب) لئلا تكون إشارة إلى تثريب إخوته وما فعلوه به وقد قال لهم : ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ .

ثم إن إخراجه من الجب كان إلى الرق ، وإخراجه من السجن إلى أن يكون عزيز مصر ، فنعمة الله عليه بذلك أكبر .

جاء في (روح المعاني) : «ولم يصرح عليه السلام بقصة الجب حذرًا من تثريب إخوته وتناسيًا لما جرى منهم . . .

ولأن الإحسان إنما تم بعد خروجه من السجن لوصوله للملك وخلوصه من الرق والتهمة»[1] .

وجاء في (التفسير الكبير) للرازي : «﴿إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ﴾ ولم يذكر إخراجه من البئر لوجوه :

الأول : أنه قال لإخوته : ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ ولو ذكر واقعة البئر لكان تثريبًا لهم فكان إهماله جارياً مجرى الكرم .

---

(١) روح المعاني ١٣/ ٦٠ .

الثاني: أنه لما خرج من البئر لم يصر ملكاً بل صيروه عبدًا.

أما لما خرج من السجن صيروه ملكًا، فكان هذا الإخراج أقرب من أن يكون إنعامًا كاملاً.

الثالث: أنه لما أخرج من البئر وقع في المضار الحاصلة بسبب تهمة المرأة، فلما أخرج من السجن وصل إلى أبيه وإخوته وزالت التهمة، فكان هذا أقرب إلى المنفعة»[١].

١٨ ـ قال تعالى في سورة إبراهيم: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: ١].

قال تعالى في الآية: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ ولم يقل (بإذن الله)؛ وذلك أن لفظ الرب مشعر باللطف والهداية والإنعام، فإن الرب معناه المالك والسيد والمربي والقيّم والمنعم[٢].

فهو المناسب هنا؛ ذلك أن المقام مقام هداية بإخراج الناس من الظلمات إلى النور. فناسب ذكر الرب وأضافه إلى ضميرهم (ربهم)، فإنه رب الناس، وهو يهديهم بإخراجهم من الظلمات إلى النور.

جاء في (روح المعاني): «﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أي بتيسيره وتوفيقه تعالى...

وكان الظاهر (بإذننا) إلا أنه وضع الظاهر موضع الضمير، وقيل (ربهم) للإشعار بالتربية واللطف والفضل وبأن الهداية لطف محض...

وأضيف إلى ضمير الناس اسم الرب المفصح عن التربية التي هي عبارة عن تبليغ الشيء إلى كماله المتوجه إليه»[٣].

---

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي، المجلد السادس ٥١٢.

(٢) انظر لسان العرب (ربب)، البحر المحيط ١/١٨.

(٣) روح المعاني ١٣/ ١٨٠.

وجاء في (البحر المحيط): «قال: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أي ذلك الإخراج بتسهيل مالكهم النظر في مصالحهم، إذ هم عبيده، فناسب ذكر الرب هنا تنبيهًا على منّة المالك وكونه ناظرًا في حال عبيده»[1].

ومن الملاحظ أنه في موطن اللطف والهداية والتفضل يذكر الرب أو الله. وأما في موطن المصائب والضرر فلا يقول (بإذن ربهم) بل يذكر لفظ الجلالة؛ لأن لفظ الرب مشعر بالإنعام والتربية والمالك كما ذكرنا. وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢].

فلما ذكر الضرر قال: ﴿بِإِذْنِ اللّهِ﴾.

وقوله: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٦].

وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [المجادلة: ١٠].

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ الله كِتَابًا مُّؤَجَّلاً﴾ [آل عمران: ١٤٥].

وقوله: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [التغابن: ١١].

في حين قال: ﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٣].

وسبحان الله رب العالمين.

١٩ ـ قال تعالى في سورة النحل: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ [النحل: ١٠].

---

(١) البحر المحيط ٥/٤٠٣.

وقال في سورة يس: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ [يس: ٨٠].

فأعاد الضمير على الشجر بلفظ المذكر فقال في آية النحل: ﴿فِيهِ تُسِيمُونَ﴾.

وقال في آية يس: ﴿مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾.

وقال في سورة الواقعة: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ﴾ [الواقعة: ٥١ ـ ٥٤].

فأعاد الضمير على الشجر بلفظ المؤنث فقال: ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾ وذلك جائز في اللغة، فإن (شجر) اسم جنس جمعي وهو يؤنث ويذكر. جاء في (البحر المحيط) في قوله تعالى: ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾: «الضمير في (منها) عائد على شجر إذ هو اسم جنس يؤنث ويذكر»[1].

ولعل السبب في هذا الاختلاف أن التأنيث يفيد الكثرة كما هو معلوم في اللغة وكما ذكرناه في أكثر من مناسبة. ولا شك أن شجر جهنم أكثر بكثير من أشجار الدنيا المذكورة في آيتي النحل ويس.

فجاء بما يدل على الكثرة وهو ضمير المؤنث.

فناسب كل تعبير موضعه الذي ورد فيه.

٢٠ ـ قال تعالى في سورة الكهف: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: ١٠٧ ـ ١٠٨].

فإن في قوله سبحانه: ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ إشارة إلى ما في نفس الإنسان من أنه إذا طال مكثه في مكان ما فإنه يرغب في التحول عنه إلى

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٢١٠.

غيره ، فإن الإنسان يملّ من المكث مدة طويلة في مكان ما أيًّا كان ذلك المكان ، ومهما كان جميلاً فإنه يود أن يرى غيره.

فأشار هنا إلى أن أصحاب الجنة لا يريدون التحول عنها ، وأنهم لا يعتريهم الملل هناك ، وذلك إما لأن المشاهد تتغير في الجنة ، ففي كل وقت يرى ساكنها جديدًا تسرّ به نفسه ، أو أن الله سبحانه يغير ما في نفسه فتكون شيئًا آخر على غير ما هي في الدنيا.

وهذه إشارة إلى ما في نفس الإنسان من الطبيعة ، وأنها جواب عن سؤال المرء لنفسه: ألا يملّ من البقاء في هذا الموضع بقاءً مستديمًا من غير تحول ؟

٢١ ـ قال تعالى في سورة طه في قصة آدم أن ربنا حذر آدم من إبليس قائلاً : ﴿ يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴾ [طه: ١١٧].

فقال (فتشقى) والخطاب لآدم ، مع أن الكلام على إخراجه وزوجه ﴿ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا ﴾ ولم يقل (فتشقيا) ، فجعل الشقاء لآدم في الدنيا ، ذلك ـ والله أعلم ـ أن الرجل هو المكلف بإعالة النساء والعائلة وليست المرأة. فهو الذي يشقى ويتعب في توفير ذلك لأهله. فإن المرأة ليست مكلفة بإعالة الزوج والأولاد ولو كانت تملك الدنيا ، وإنما الرجل هو المكلف ولو كان لا يملك شيئًا. فهو الذي سيشقى في الدنيا. جاء في (روح المعاني): «وقيل: المراد بالشقاء التعب في تحصيل مبادي المعاش وهو من وظائف الرجال» [١].

هذا إضافة إلى نهاية الفاصلة.

---

(١) روح المعاني ١٦/ ٢٧١ وانظر تفسير أبي السعود ٤/ ٣٦٩.

٢٢ ـ قال سبحانه في سورة الحج: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ﴾ [الحج: ٦ ـ ٧].

وقال في سورة غافر: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأَتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [غافر: ٥٩].

فقال في آية الحج: ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾.

وقال في آية غافر: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأَتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾.

فأكد إتيان الساعة في آية الحج بـ (أنّ) وحدها ﴿أَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ﴾، وأكده في غافر بـ (إن) واللام ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأَتِيَةٌ﴾.

ذلك أنه قال قبل آية الحج: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ...﴾ [الحج: ٥].

فذكر الريب.

وأما في آية غافر فقد قال: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

فذكر عدم الإيمان.

ولا شك أن عدم الإيمان أشد وأبعد في الإنكار، فاقتضى ذلك الزيادة في التوكيد في آية غافر.

٢٣ ـ قال سبحانه في سورة الحج: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ [الحج: ٣٨].

وقال في سورة النساء: ﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ [النساء: ١٠٧].

فقال في آية الحج: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾.

فذكر صفة الكفر مع الخيانة.

وقال في آية النساء: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾.

فذكر صفة الإثم مع الخيانة.

ذلك أنه في آية الحج ذكر الذين آمنوا ودفاعه عنهم، فناسب في المقابل أن يذكر الخوّان الكفور، أي المبالغ في الكفر.

وأما في آية النساء فقد ذكر الذين ارتكبوا الإثم مع الخيانة. وكان ذلك في جماعة من المنافقين سرقوا طعامًا وسلاحًا واتهموا به بريئًا من المسلمين فبرأه الله سبحانه[1]. وقد ذكر سبحانه أمرهم في آيات من سورة النساء ومنها هذه الآية.

ومما قاله سبحانه في السياق: ﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١١١ ـ ١١٢].

فناسب ذكر الخوّان الأثيم في الآية، أي المبالغ في الإثم.

فناسب كل تعبير موضعه الذي ورد فيه.

٢٤ ـ قال سبحانه في سورة الحج: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ ۖ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الحج: ٤٢ ـ ٤٤].

فقد ذكر قوم نوح وعادًا وثمود وقوم إبراهيم وقوم لوط وأصحاب مدين ولم يذكر قوم موسى، وإنما قال: ﴿وَكُذِّبَ مُوسَىٰ﴾، ذلك أن قوم موسى لم يكذبوه، بل آمن له أكثرهم، وإنما كذبه فرعون وقومه، فلا يناسب أن يقول (وقوم موسى).

---

(١) انظر روح المعاني ٥/١٣٨ وما بعدها.

جاء في (روح المعاني) في قوله: ﴿وَكُذِّبَ مُوسَىٰ﴾: «المكذب له عليه السلام هو القبط وليسوا قومه، بل قومه عليه السلام بنو إسرائيل ولم يكذبوه بأسرهم، ومن كذبه منهم تاب إلا اليسير... ولهذا لم يقل (وقوم موسى) كما قال (قوم نوح وقوم إبراهيم)»(١).

٢٥ ـ قال سبحانه في سورة الحج: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوْ مَاتُواْ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ [الحج: ٥٨ ـ ٥٩].

وقال في سبأ: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩].

وقال في سورة المؤمنون: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [المؤمنون: ٧٢].

وقال في سورة الجمعة: ﴿قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [الجمعة: ١١].

فقال في آية الحج: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ بالتوكيد بإن واللام.

وقال في الآيات الأخرى: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ أو ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ من دون توكيد.

ذلك أن آية الحج فيمن ترك أرضه وماله وخرج إلى أرض أخرى في سبيل الله فقتل أو مات. فذكر ربنا أنه ليرزقنهم خيرًا مما كان عندهم وليسكننهم خيرًا من مسكنهم الذي تركوه.

---

(١) روح المعاني ١٧/ ١٦٥.

فأكد الرزق مرتين، مرة بقوله تعالى: ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًاۚ﴾ فأكد الفعل بنون التوكيد الثقيلة، ثم وصف الرزق بالحسن فقال: ﴿رِزْقًا حَسَنًاۚ﴾.

والمرة الأخرى أكده بقوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ فأكد ذلك بإن واللام.

ثم قال بعد ذلك: ﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥۗ﴾ فذكر مكان إقامتهم وأنهم يرضون ذلك المدخل، وأكد ذلك بنون التوكيد الثقيلة فقال: (ليدخلنهم) ووصفه بأنهم يرضونه.

فذكر أمرين للمهاجرين في سبيل الله:

الرزق الحسن، والمدخل الذي يرضونه وهو المكان.

ذلك أن المهاجر في العادة يترك أرضه وماله مبتغيًا خيرًا من ذلك، فذكر أن له الرزق الحسن، والمُدخل المرضيّ.

وأما الآيات الأخرى فهي في الدنيا فلم يؤكد ذلك، وإنما قال: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ أو ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ من دون توكيد.

والملاحظ في الآية أنه لم يذكر الجهاد في سبيل الله مع الهجرة، فهذا أجر المهاجر في سبيل الله.

وقد ذكر ربنا في آيات أخرى الهجرة مع الجهاد في سبيل الله وذلك نحو قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التوبة: ٢٠ ـ ٢٢].

فذكر أنهم أعظم درجة عند الله، وأنهم هم الفائزون، ولم يقل (هم فائزون) بل قال: ﴿هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ وذلك للدلالة على كمال الفوز وعظمه.

وذكر أنه يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم ، وأنهم خالدون فيها أبدًا. ثم ذكر أن الله عنده أجر عظيم.

والفرق بين الأجرين واضح ، فأولئك هاجروا في سبيل الله ، وهؤلاء هاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم.

والأجر إنما يكون بحسب العمل.

وقال في آية أخرى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ [النحل: ٤١].

فقال في هؤلاء المهاجرين إن لهم في الدنيا حسنة ، ولأجر الآخرة أكبر.

فذكر أنه ليبوّئنهم في الدنيا حسنة ؛ ذلك أنهم لم يُقتلَوا أو يموتوا فذكر ما لهم في الدنيا والآخرة.

وأولئك قُتلوا أو ماتوا فلم يذكر الدنيا معهم وإنما ذكر ما لهم في الآخرة.

وكل تعبير مناسب لمقامه كما هو واضح.

٢٦ ـ قال سبحانه في سورة الفرقان: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا﴾ [الفرقان: ٢٤].

وقال في موضع آخر من السورة في عباد الرحمن: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا ۝٧٥ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا﴾ [الفرقان: ٧٥ ـ ٧٦].

فذكر في الآية الأولى أن أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرًّا وأحسن مقيلاً. فذكر المقيل وهو مكان القيلولة أو زمانها. وهو وقت الظهيرة. والقيلولة استراحة منتصف النهار أو النوم فيها.

وذكر في الآية الأخرى عن الجنة أنها حسنت مستقرًّا ومقامًا ، فذكر مكان الإقامة ، والإقامة أدوم من القيلولة .

ذلك ـ والله أعلم ـ أن الآية الأولى عند الحساب أو بعده . يدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ [الفرقان : ٢٢] .

وهذا عند النزع أو في الحساب[1] .

ويدل على ذلك قوله سبحانه قبل الآية : ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان : ٢٣] .

وهذا عند الحساب يوم القيامة .

وقال بعد الآية : ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴾ [الفرقان : ٢٥] .

وهذا يكون في القيامة .

فذكر أن أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرًّا وأحسن مقيلاً ، فقال (يومئذ) أي يوم إذ يحصل ذاك .

وأما الآية الأخرى فهي في جزاء أصحاب الجنة وإقامتهم وأنهم خالدون فيها . فقد قال سبحانه : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ۝٧٥ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ [الفرقان : ٧٥ ـ ٧٦] .

فذكر أن الغرفة جزاؤهم وأنهم خالدون فيها ، ولم يذكر الخلود مع المقيل .

---

(١) انظر روح المعاني ١٩/ ٥ .

وقال فيها: ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ .

فذكر الإقامة، ولم يذكر الإقامة في الآية الأولى.

والغرفة: الدرجة العالية من المنازل، وقيل أعلى منازل الجنة[١] .

جاء في (روح المعاني): «قيل المستقر والمقيل في المحشر قبل دخول الجنة، أو المستقر فيها والمقيل فيه»[٢] .

وقيل: المقيل هو ساعة دخول أهل الجنة الجنة، أو قيلولتهم مع الحور العين[٣] .

وعلى أية حال فإن الإقامة أدوم من المقيل، ولذا قال سبحانه إنهم خالدون فيها.

ولا شك أن مقيل أهل الجنة في كل الأحوال والأوقات وعلى كل الأقوال خير من مقيل أهل النار أعاذنا الله منها. وإن التعبير يوضح الفرق بين المقيل والمقام على كل حال وتفسير.

هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى أنه ذكرَ مع المستقر والمقيل اسم التفضيل (خير) و(أحسن) فقال: ﴿خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ .

ومع المستقر والمقام ذكر فعل المدح فقال: ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ وهو يحتمل التعجب ويحتمل المدح، أي ما أحسن مستقرهم ومقامهم، ونعم المستقر مستقرهم ومقامهم.

ذلك أن قوله: ﴿خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ يعني خيرًا من مستقر أهل النار وأحسن من مقيلهم.

---

(١) روح المعاني ١٩/ ٥٣.

(٢) روح المعاني ١٩/ ٨.

(٣) انظر تفسير ابن كثير ٣/ ٣١٥، فتح القدير ٤/ ٦٨، روح المعاني ١٩/ ٨.

وأهل النار ليس عندهم خير ولا حسن ولكنه من باب التفضيل ، كما يقال : (العسل أحلى من الخل) والخل ليس فيه حلاوة .

إن قولنا : (هذا أحسن من هذا) يقال لما كان في الشيئين حسن وأحدهما فيه زيادة في الحسن على الشيء الآخر كقولنا : (ضوء الشمس أشد من نور القمر) و(العسل أحلى من البنجر) .

ويقال لما ليس في الشيئين حسن ولا خير ولكن أحدهما أقل سوءًا من الآخر وذلك كقوله تعالى : ﴿ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ﴾ [يوسف : ٣٣] .

وكقولك : (الضرب خير من القتل) .

ويقال لما كان في أحد الشيئين حسن ظاهر وليس في الآخر حسن بل هو شر كله وذلك كقولنا (الجنة خير من النار) وكما في الآية . ونحو ما يذكره ربنا في أصحاب الجنة وأصحاب النار وذلك نحو قوله سبحانه في أهل النار : ﴿وَإِذَآ أُلۡقُواْ مِنۡهَا مَكَانٗا ضَيِّقٗا مُّقَرَّنِينَ دَعَوۡاْ هُنَالِكَ ثُبُورٗا ﴿١٣﴾ لَّا تَدۡعُواْ ٱلۡيَوۡمَ ثُبُورٗا وَٰحِدٗا وَٱدۡعُواْ ثُبُورٗا كَثِيرٗا﴾ [الفرقان : ١٣ ـ ١٤] .

ثم قال في الجنة : ﴿قُلۡ أَذَٰلِكَ خَيۡرٌ أَمۡ جَنَّةُ ٱلۡخُلۡدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۚ كَانَتۡ لَهُمۡ جَزَآءٗ وَمَصِيرٗا ﴿١٥﴾ لَّهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعۡدٗا مَّسۡـُٔولٗا﴾ [الفرقان : ١٥ ـ ١٦] .

فذكر المفاضلة بين الجنة والنار فقال : ﴿أَذَٰلِكَ خَيۡرٌ أَمۡ جَنَّةُ ٱلۡخُلۡدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۚ﴾ وليس في النار خير .

وأما قولنا : (حَسُنَ هذا الأمر) فهو من باب المدح له في الحسن ، وإنه ذو حسن ظاهر وثابت . ويحتمل التعجب من حسنه ، أي ما أحسن هذا الأمر !

فقوله سبحانه: ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ يحتمل المدح، أي نعم المستقر والمقام، ويحتمل التعجب، أي ما أحسن مستقرهم ومقامهم!

فإن صيغة (فَعُل) بضم العين قد تفيد المدح، وقد تفيد التعجب كما هو مقرر في كتب النحو[(١)].

والمراد به في الآية الأمران المدح والتعجب والله أعلم.

٢٧ ـ قال سبحانه في سورة الفرقان: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٤٧].

وقال في سورة النبأ: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبأ: ٩ ـ ١١].

فذكر في الفرقان أنه جعل النهار نشورًا، وهو البعث من الموت.

وقال في النبأ أنه جعل النهار معاشًا.

ذلك أن كل تعبير موافق للسياق الذي ورد فيه ولمقامه.

فإنه في الفرقان تكرر ذكر النشور والتكذيب به وبالساعة، فناسب أن يذكر أن النهار نشور.

فقد قال في آية سابقة: ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٣].

وقال بعد: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ [الفرقان: ١١].

وقال بعد ذلك: ﴿۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ

---

(١) انظر شرح الرضي على الكافية ٢/ ٣٥٢، شرح ابن يعيش ٧/ ١٢٩، الهمع ٢/ ٨٧ ـ ٨٨.

نَرَىٰ رَبَّنَاۗ لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ وَعَتَوۡ عُتُوّٗا كَبِيرٗا﴾ [الفرقان: ٢١].

والذين لا يرجون لقاء الله إنما هم مكذبون بالبعث والنشور.

وقال بعد ذلك: ﴿وَلَقَدۡ أَتَوۡاْ عَلَى ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِيٓ أُمۡطِرَتۡ مَطَرَ ٱلسَّوۡءِۚ أَفَلَمۡ يَكُونُواْ يَرَوۡنَهَاۚ بَلۡ كَانُواْ لَا يَرۡجُونَ نُشُورٗا﴾ [الفرقان: ٤٠].

ثم إنه قال بعد الآية: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ طَهُورٗا ﴿٤٨﴾ لِّنُحۡـِۧيَ بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗا وَنُسۡقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقۡنَآ أَنۡعَٰمٗا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرٗا﴾ [الفرقان: ٤٨ ـ ٤٩].

فذكر إحياء الأرض بعد موتها.

فناسب ذكر النشور.

وأما آية النبأ فهي في سياق المعاش.

فقد قال بعد الآية: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡمُعۡصِرَٰتِ مَآءٗ ثَجَّاجٗا ﴿١٤﴾ لِّنُخۡرِجَ بِهِۦ حَبّٗا وَنَبَاتٗا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلۡفَافًا﴾ [النبأ: ١٤ ـ ١٦].

والمعصرات: السحب. والماء الثجاج: المطر الشديد الانصباب.

والحب والنبات من أهم وسائل المعاش، وكذلك الجنات الملتفة فناسب كل تعبير موطنه الذي ورد فيه.

٢٨ ـ قال تعالى في سورة الفرقان: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤].

قدم الأزواج على الذرية لأكثر من سبب:

من ذلك أن الأزواج أسبق من الذرية، فإن الذرية من الأزواج كما هو معلوم. قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةٗ﴾ [النحل: ٧٢].

ولأن الأزواج ألصق من الذرية بالشخص، فهي تكون معه على جهة الاستمرار. فإن الذرية قد تفارق الأب لمشاغلها في أمور الحياة. وقد تكون بعيدة عنه. وإذا كانت الذرية من البنات فهن يذهبن مع أزواجهن.

ولهذا قد يذكر ربنا الأزواج في الجنة ولا يذكر الذرية معهم أحيانًا ، وذلك نحو قوله تعالى : ﴿ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ ﴾ [الزخرف : ٧٠] ، وقوله : ﴿ هُمۡ وَأَزۡوَٰجُهُمۡ فِي ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴾ يس : ٥٦] .

ولأن الذرية قد تكون لها أزواج فيكونون مع أزواجهم .

وقد يكون للرجل زوج ولا تكون له ذرية .

فهي ألصق به على العموم لا تفارقه ولا يفارقها في الغالب .

ولأنها إذا كانت صالحة فهي تحسن تربية ذريتها وتوجيههم إلى الخير ، فقد يكون الأب منصرفًا عنهم في مشاغل الحياة ومفارقًا للبيت .

وفي الحديث : «ألا أخبركم بخير ما يكنز؟ المرأة الصالحة إذا نظر إليها سرّته ، وإذا أمرها أطاعته ، وإذا غاب عنها حفظته» رواه الحاكم في المستدرك وقال حديث صحيح على شرط الشيخين .

وليس معنى ذلك أن الزوجة أحب من الأبناء إلى الرجل ، فالأبناء أحب إلى آبائهم من الأزواج على العموم ولذا قدمهم في سياق المحبة في قوله تعالى : ﴿ قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة : ٢٤] .

والتقديم والتأخير قد يكون لأسباب عديدة ، فقد يقدم الأفضل ، وقد يقدم المفضول بحسب ما يقتضيه المقام[1] .

٢٩ ـ ذكر ربنا في سورة النمل قصة سيدنا سليمان وملكة سبأ وأن سيدنا سليمان سأل ملأه من يأتيه بعرشها ؟ فذكر قول عفريت من الجن

(١) انظر التعبير القرآني ، باب التقديم والتأخير.

أنه يأتيه بعرشها قبل أن يقوم من مقامه (٣٩ ـ ٤٠) ، وأن الذي عنده علم من الكتاب قال إنه يأتيه به قبل أن يرتد إليه طرفه ، وقد فعل ذلك.

فدل ذلك على أن العلم أقوى من عفاريت الجن ، وأن العلم يقدر ما لا يقدر عليه الجن.

وذلك يدل على منزلة العلم العظيمة ، وأن البشر قد يملك من الوسائل ما لا يستطيعه الجن.

٣٠ ـ ذكر ربنا في سورة النمل أن ملكة سبأ أسلمت فقالت: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤].

ومن الملاحظ أنها لم تقل (رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي) كما ورد في مواطن أخرى من القرآن ، وذلك كما ذكر عن سيدنا موسى أنه قال حين قتل القبطي: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾ [القصص: ١٦].

وعن سيدنا آدم وزوجه حين عصيا ربهما فأكلا من الشجرة فقالا: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

ذلك أن ملكة سبأ كانت كافرة ثم دخلت الإسلام ، وأن الإسلام يجبّ ما قبله ، فلا تحتاج إلى سؤال المغفرة ، وهذا من الفقه.

٣١ ـ جاء في سورة العنكبوت: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٨].

وقال في الزمر: ﴿۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: ٣٢].

فقال في آية العنكبوت: ﴿لَمَّا جَاءَهُ﴾.

وقال في آية الزمر: ﴿إِذْ جَاءَهُ﴾.

ومما ذكر في الفرق بين التعبيرين أن (إذ) هنا للمفاجأة ، أي كذّب بالصدق فجأة من دون تفكير ولا مهلة من الوقت.

جاء في (الكشاف): «﴿إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾ فاجأه بالتكذيب لما سمع به من غير وقفة لإعمال روية واهتمام بتمييز بين حق وباطل كما يفعل أهل النصفة فيما يسمعون»(١).

أما (لما) فهي ليست بالضرورة تفيد المفاجأة، بل قد يكون بين الأمرين وقت ومهلة، تقول: (لما أكرمني أمس أكرمته اليوم).

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٤٩] فإن هبة إسحاق ويعقوب ليست عند الاعتزال مباشرة، بل بعد ذلك بزمن.

وقال في سيدنا سليمان: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ [سبأ: ١٤].

ولا شك أن هذا يدل على أن ذلك حصل بعد موته بمدة غير قليلة، فدل ذلك على أن (لما) قد لا تفيد المفاجأة أحيانًا.

ومن دلالة التسرع في الكذب على الله والمفاجأة فيه أنه ذكر أمرين في آية الزمر: أنهم كذبوا على الله وكذبوا بالصدق إذ جاءهم، فقد قال سبحانه ﴿۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾.

وأما في آية العنكبوت فإنهم لم يجمعوا بين الأمرين، بل فعلوا أحدهما. وأيًّا ما فعلوه فهو ظلم، فقال سبحانه ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ﴾.

فجاء بالواو في آية الزمر، وجاء بـ(أو) في آية العنكبوت. وأيًّا ما كان من الأمرين فإن صاحبه ظالم ولا أحد أظلم منه.

---

(١) الكشاف ٣/ ٣٢.

فإن جمعهما كان أظلم.

ولئلا يظن في آية الزمر أن الذي يجمعهما هو الظالم دون من لم يجمعهما ذكر في السورة أن كلًّا منهما ظالم كافر.

فقد ذكر المكذبين بآيات الله وعذابه فقال: ﴿قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الزمر: ٥٩].

وقال: ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ۝٢٥ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٥ـ٢٦].

وقال في الذين كذبوا على الله: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٦٠].

وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣].

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أن المجيء بالواو في آية الزمر في قوله ﴿كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾ مناسب لما جاء بعدها وهو قوله: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٣٣].

فالذي جاء بالصدق مقابل لمن كذب على الله، فذاك صدق على الله وهذا كذب عليه.

وقوله: ﴿وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ مقابل لقوله: ﴿وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾.

فذاك كذّب به وهذا صدّق به.

فهما متقابلان وكلاهما معطوف بالواو.

وجاء بـ (من) في قوله: ﴿مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ﴾.

وبـ (الذي) في قوله: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ﴾.

ذلك أن (من) اسم موصول مشترك في المفرد والمثنى والجمع المذكر والمؤنث.

و(الذي) اسم موصول مختص بالمفرد المذكر ، والاسم الموصول المختص أعرف من المشترك ، ولعل ذلك إشارة إلى أن الصنف الأول أكثر. فإن من كذب على الله كثير ، وأما الذي جاء بالصدق فهو رسول الله ﷺ[1] ، وهو شخص واحد.

وإن آية العنكبوت مناسبة لما قبلها ، فقد سبقها الكاذب على الله في قوله سبحانه: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

فهذا نقض عهده وكذب.

وذكر المكذبين بالحق في قوله: ﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٦].

فهؤلاء كفروا بما آتاهم الله ، أي: كذّبوا بالحق لما جاءهم.

فهما صنفان: أحدهما راكب في الفلك.

والآخر الكافر بما آتاه الله.

فناسب ذكر (أو) لأنه ذكر حالتين. والله أعلم.

ومن ناحية أخرى أن قوله في العنكبوت: ﴿أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ﴾ مناسب لما جاء قبلها: ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾.

فالحق مقابل للباطل، فأحدهما كذّب بالحق، والآخر يؤمن بالباطل.

وأن قوله في الزمر: ﴿وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾ مناسب لما جاء بعدها ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾.

---

(١) انظر روح المعاني ٢٤/٢.

والذي كذّب بالصدق مقابل لمن صدّق به، فـ(كذّب) مقابل (صدّق).

فناسب كل تعبير موضعه الذي ورد فيه من كل وجه.

٣٢ ـ قال سبحانه في سورة الأحزاب: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَـٰذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥ ـ ٤٧].

* * *

نود أن نذكر ههنا أنه لم يرد في القرآن الكريم مناداة بـ(ياأيها النبي) لغير خاتم الرسل محمد.

وقد ورد فيه ﷺ ذلك في أكثر من موضع وذلك نحو قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤]، وقوله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [التوبة: ٧٣]، وقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ﴾ [الممتحنة: ١٢].

كما لم ترد مناداة بـ(ياأيها الرسول) لغيره ﷺ.

وقد وردت في القرآن مناداته ﷺ بذلك في أكثر من موضع. وذلك نحو قوله تعالى: ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ﴾ [المائدة: ٦٧]، وقوله: ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ [المائدة: ٤١].

كما لم ترد كلمة (شاهد) صراحة في رسول غيره ﷺ. وقد ورد فيه ذلك في أكثر من موضع، من ذلك قوله: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الفتح: ٨]، وقوله: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَـٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ [المزمل: ١٥].

كما لم ترد كلمة (مبشر) في غيره ﷺ. وقد ورد فيه ذلك في أكثر من موضع، وذلك نحو قوله تعالى ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [الإسراء: ١٠٥، الفرقان: ٥٦]، وقوله: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [الفتح: ٨].

أما كلمة (نذير) فقد وردت فيه وفي غيره من الرسل، وذلك نحو قوله تعالى على لسان سيدنا نوح: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ﴾ [نوح: ٢].

وقد ورد في عموم الرسل ذكر التبشير والإنذار وذلك نحو قوله تعالى ﴿وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [الأنعام: ٤٨، الكهف: ٥٦]، وقوله: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [البقرة: ٢١٣].

كما لم ترد كلمة (بشير) إلا فيه ﷺ وذلك نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [البقرة: ١١٩]، وقوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [سبأ: ٢٨].

كما لم ترد (داعياً إلى الله) في غيره ﷺ. وكذلك (داعي الله)، فقد قالت الجن لقومهم بعد ما سمعوا القرآن: ﴿يَٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُجِرۡكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبۡ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيۡسَ بِمُعۡجِزٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَيۡسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءُۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ [الأحقاف: ٣١-٣٢].

كما لم ترد كلمة (سراج) في رسول من رسل الله غيره ﷺ.

ونعود لنذكر شيئاً من الأمور البيانية في هذه الآيات:

ذكروا في قوله (شاهدًا) أنه يحتمل وجوهًا: «أحدها أنه شاهد على الخلق يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ﴾...

ثانيها: أنه شاهد أن لا إله إلا الله...

وثالثها: أنه شاهد في الدنيا بأحوال الآخرة من الجنة والنار والميزان

والصراط ، وشاهد في الآخرة بأحوال الدنيا بالطاعة والمعصية والصلاح والفساد»[(١)] .

﴿وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ أي يبشر المؤمنين بالجنة وينذر الكافرين والعاصين بالنار. وقدم الشاهد لأن من معانيه الشهادة بأن لا إله إلا الله كما ذكر وهي مقدمة على ما بعدها .

وقدم المبشّر على النذير ؛ لأن السياق في ذكر المؤمنين وخطابهم وتبشيرهم فقد قال قبل الآية : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤١ ـ ٤٤] .

ثم قال بعدها : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا . . .﴾ [الأحزاب: ٤٥] .

ثم قال بعدها : ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٧] .

فناسب تقديم التبشير على الإنذار .

والتقديم والتأخير إنما يكون بحسب المقام ، فقد يقدم النذير إذا اقتضى المقام ذلك ، وذلك نحو قوله تعالى : ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨] .

فقدم النذير لتقدم ذكر الكافرين وإنذارهم ، وذلك في قوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى

---

(١) تفسير الرازي ٩/ ١٧٣ .

مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٢ ـ ١٨٥].

ويستمر الكلام على هؤلاء الضالين، فناسب تقديم الإنذار على التبشير فقال: ﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، فذكر أنه بشير للمؤمنين لا لهؤلاء الضالين المكذبين.

جاء في (تفسير الرازي): «وقوله: ﴿مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ فيه ترتيب حسن من حيث إن النبي عليه السلام أرسل شاهدًا بقوله (لا إله إلا الله) ويرغب في ذلك بالبشارة. فإن لم يكف ذلك يرهب بالإنذار. ثم لا يكتفي بقولهم: (لا إله إلا الله) بل يدعوهم إلى سبيل الله كما قال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾»(١)

﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ﴾:

قال: (بإذنه) لأن الدعوة إلى أي شخص ـ ولله المثل الأعلى ـ لا تكون إلا بإذن ذلك الشخص المدعو إليه. فلو قلت: (أنا أدعوكم إلى الملك أو إلى الأمير أو إلى شخص ما) فلا يكون ذلك إلا بإذن المدعو إليه. فلما كان الرسول داعيًا إلى الله لم يكن ذلك إلا بإذنه سبحانه(٢).

قد تقول: ولكن قال سبحانه في موضع آخر: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨] فقال (أدعو إلى الله) ولم يقل (بإذنه) فلم ذاك؟

والجواب أنه لما قال له ربه: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ...﴾ فهذا يعني أنه

---

(١) تفسير الرازي ٩/ ١٧٣.
(٢) انظر تفسير الرازي ٩/ ١٧٣.

سبحانه أمره بالدعوة إليه وهذا إذن وزيادة ، وهو أمر ملزم له ولمن تبعه بالدعوة إليه سبحانه على بصيرة .

وقد تقول : لقد قال سبحانه في سورة الفتح : ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٨ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الفتح : ٨ ـ ٩] ولم يقل (وداعيًا إلى الله) كما قال في الأحزاب فما الفرق ؟

والجواب : أن آية الفتح ليست في سياق الدعوة وإنما هي في سياق القتال والبيعة على ذلك ، فقد قال سبحانه : ﴿ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾ . ومن معاني التعزير النصر بالسيف ، جاء في (لسان العرب) : «العزر : النصر بالسيف ، وعزره عزرًا وعزّره : أعانه وقوّاه ونصره ، قال الله تعالى : ﴿ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾ وقال الله تعالى : ﴿ وَعَزَّرْتُمُوهُمْ ﴾ . جاء في التفسير (أي لتنصروه بالسيف) ، ومن نصر النبي ﷺ فقد نصر الله عز وجل . وعزرتموهم : عظّمتموهم . وقيل نصرتموهم»[1] .

وقال بعدها : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح : ١٠] .

ويستمر الكلام في هذا السياق إلى آخر السورة ، بل إن السورة كلها إنما هي في سياق القتال .

وأما آية الأحزاب فهي سياق التبليغ ، فقد قال قبل الآية : ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَـٰلَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾ [الأحزاب : ٣٩] .

---

(١) لسان العرب (عزر) .

﴿ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾ .

قال عنه إنه سراج ولم يقل شمس ؛ ذلك أن السراج أعم ، فقد سمى الشمس سراجًا ، فقد قال سبحانه : ﴿ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴾ [نوح : ١٦] . ثم إن الشمس تغرب والسراج لا يغرب . والشمس لا يقتبس منها والسراج يقتبس منه ، والشمس لا تنقل والسراج ينقل إلى حيث نريد ، والشمس لا تكون في كل مكان والسراج يكون في كل مكان ، والشمس لا تكون منها شموس والسراج يكون منه سُرُج كثيرة وغير ذلك .

جاء في (تفسير الرازي): «قال في حق النبي سراجًا ولم يقل إنه شمس مع أنها أشد إضاءة من السراج لفوائد :

منها أن الشمس نورها لا يؤخذ منه شيء والسراج يؤخذ منه أنوار كثيرة ، فإذا انطفأ الأول يبقى الذي أخذ منه وكذلك إن غاب»[1] .

وليس صحيحًا ما قاله إن الشمس أشد إضاءة من السراج ، فإن السراج أعم وإن الشمس سراج كما ذكر سبحانه ، فكان جعله ﷺ سراجًا أولى من جعله شمسًا لأكثر من سبب كما ذكر . والله أعلم .

٣٣ ـ قال سبحانه في سورة سبأ : ﴿ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سبأ : ١٣] .

دلت الآية على أن الشكر لا يكون باللسان وحده ، وإنما يكون بالعمل فقال لهم تعالى : اعملوا الشكر .

فمن لم يعمل ما يجب عليه من الشكر فليس بشاكر ولو قال بلسانه آلاف المرات (أشكر الله) ، وشكر الله يكون بفعل ما يجب عليه من الطاعات .

---

(١) تفسير الرازي ٩/ ١٧٤ .

فمن كان له مال فشكره أن يؤدي حقه.

ومن كان عنده علم فشكره أن ينشره ولا يكتمه، فمن كتمه فليس بشاكر ولو قال آلاف المرات: أشكر الله تعالى على هذه النعمة.

وهكذا فالشكر يكون بالعمل مع الذكر باللسان.

فالشكر بهذا المعنى مفعول به، ويصح أن يكون مفعولاً له أو مفعولاً مطلقًا، وكل ذلك مطلوب، فطلب منهم عمل الشكر، والعمل لأجل الشكر، وأن يشكروه شكرًا، أو على تأويل الحال، أي: اعملوا شاكرين.

جاء في (روح المعاني): ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ «شكرًا نصب على أنه مفعول له، وفيه إشارة إلى أن العمل حقه أن يكون للشكر لا للرجاء والخوف، أو على أنه مفعول مطلق لاعملوا؛ لأن الشكر نوع من العمل، أو على أنه حال بتأويل اسم الفاعل، أي: اعملوا شاكرين. لأن الشكر يعم القلب والجوارح، أو على أنه مفعول به لاعملوا، فالكلام كقولك (عملت الطاعة)»[1].

وعلى أي توجيه يدل ذلك على اقتران الشكر بالعمل.

٣٤ ـ قال تعالى في سورة يس: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ﴾ [يس: ٥٥].

وقوله: ﴿فِى شُغُلٍ﴾ إشارة إلى أن الإنسان قد يملّ من الفراغ، فذكر سبحانه أنهم في شغل.

ثم إن الشغل المرهق متعب وممل فقال: ﴿فَٰكِهُونَ﴾ أي ملتذون به مستمتعون.

وانظر هذه الآية في تفسيرنا لسورة يس[2].

---

(١) روح المعاني ٢١/ ١٢٠.

(٢) على طريق التفسير البياني ج٢/ ٢٠٠ ـ ٢٠٢.

٣٥ ـ قال تعالى في سورة الزمر: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: ٣٠ ـ ٣١].

قال: ﴿عِندَ رَبِّكُمْ﴾ ولم يقل: (عند ربك)؛ وذلك لأن القاضي ينبغي أن يكون على مسافة واحدة من المتخاصمين ولا تكون له علاقة بأحد المتخاصمين دون الآخر، والمخاطب في الآية ـ وهو الرسول ـ أحد المتخاصمين، فقال سبحانه: ﴿عِندَ رَبِّكُمْ﴾ فأضاف الرب إلى ضمير المتخاصمين جميعًا ولم يضفه إلى واحد منهم.

ومن الملاحظ في القرآن الكريم أنه لم يضف الرب إلى ضمير المخاطب إذا كان المخاطب مشتركًا مع غيره في الفصل والقضاء أو الاختلاف بأن يكون واحدًا منهم، وإنما يضيفه إلى ضمير المخاطبين أو يأتي بلفظ الجلالة (الله)؛ وذلك لأن لفظ الجلالة لا يخص واحدًا دون آخر. وذلك نحو قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٤]، وقوله: ﴿اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [الحج: ٦٩]، وذلك لأن المخاطب مشترك معهم في الاختلاف.

وقد يأتي بالإضافة إلى ضمير المخاطب إذا لم يكن المخاطب أحد المتخاصمين أو المختلفين وذلك نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [يونس: ٩٣]، وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ [النمل: ٧٨]، وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [السجدة: ٢٥]، وقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النحل: ١٢٤] فقال فيها (ربك) لأن المخاطب غير مشترك معهم في الاختلاف، فإنه قال فيها (بينهم) لا (بينكم).

أو قد يأتي باسم الجلالة كما ذكرت وذلك نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [الحج: ١٧].

وهذا من لطائف التعبير في القضاء والحكم والفصل.

٣٦ ـ قال تعالى في سورة الشورى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَـٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٧].

وقال في سورة النجم: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَـٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم: ٣٢].

فاستثنى اللمم في آية النجم فقال (إلا اللمم) ولم يذكر اللمم في آية الشورى.

ذلك أنه قال في آية النجم: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ فشملت سعة مغفرته اللمم وهي صغائر الذنوب إذا اجتنبت الكبائر. وهذا من رحمته سبحانه بعباده.

ثم من ناحية أخرى أنه قال سبحانه قبل آية النجم: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١].

فذكر أنه يجزي الذين أساؤوا بما عملوا، وهذا يعم الإساءة بالعمل صغيرها وكبيرها، فبين سبحانه أنه يستثني اللمم إذا اجتنبت كبائر الإثم والفواحش، والفواحش ما عظم قبحه من الكبائر[١].

ولم يذكر نحو ذلك في سياق آية الشورى.

جاء في (روح المعاني): «﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ حيث يغفر الصغائر

---

(١) روح المعاني ٢٧/ ٦١.

باجتناب الكبائر ، فالجملة تعليل لاستثناء اللمم وتنبيه على أن إخراجه عن حكم المؤاخذة ليس لخلوه عن الذنب في نفسه بل لسعة المغفرة الربانية»[١] .

٣٧ ـ قال تعالى في سورة الدخان: ﴿ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ [الدخان: ١٧] .

وقوله: ﴿رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ يعني به سيدنا موسى عليه السلام.

ولم يقل (رسول مبين) في سيدنا موسى في القرآن الكريم ؛ ذلك لأنه كانت في لسانه عقدة دعا ربه أن يحلّها فقال: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى﴾ [طه: ٢٧ ـ ٢٨] ، وقال: ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَـٰرُونَ﴾ [الشعراء: ١٣] .

وقال فرعون عن سيدنا موسى: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥٢] .

في حين وصف سيدنا نوحاً بالإبانة فقال فيه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [هود: ٢٥] .

وقال فيه أيضًا: ﴿قَالَ يَـٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [نوح: ٢] .

ووصف سيدنا محمدًا بالإبانة في مواطن عدة من القرآن الكريم فقال: ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ [الدخان: ١٣] ، وقال: ﴿فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الذاريات: ٥٠ ـ ٥١] ، وقال: ﴿وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الحجر: ٨٩] .

وغير ذلك.

وسبحان الله رب العالمين.

---

(١) روح المعاني ٢٧/ ٦٣.

٣٨ ـ قال تعالى لنبيه موسى عليه السلام: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ [الدخان: ٢٣ ـ ٢٤].

وفيه دلالة على ضرورة الأخذ بالأسباب حتى لو كان عنده علم بعاقبة الأمر ولو أخبره رب العزة بذلك.

فإن الله سبحانه أخبر نبيه بأنهم متبعون وأن الذين يتبعونه مغرقون ومع ذلك طلب منه الإسراء ليلاً، وهو وقت الظلمة والتخفي، وذلك للأخذ بالأسباب حين يطلب الشخص النجاة من عدوه، وإلا فما الفرق بين سيره نهارًا وإسرائه ليلاً إذا كان أعداؤهم مغرقين لا محالة كما أخبره ربه بذلك؟

وفيه تعليم لعباده سبحانه بضرورة الأخذ بالأسباب على أية حال.

وشبيه بهذا ما فعله سيدنا محمد حين هاجر من مكة إلى المدينة، فقد أخذ بكل أسباب الحيطة والتخفي.

وينبغي أن لا يقول الشخص: إذا كان الأمر مقدرًا لي فإن المقدور حاصل ولو أخذت بكل الأسباب، بل ينبغي أن يأخذ بالأسباب ولو علم النتيجة، بل ولو أخبره ربه بها. ولذلك أمر ربنا بالحذر فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا﴾ [النساء: ٧١].

كما أمر ربنا عباده المؤمنين عند القتال بالأخذ بالحذر حتى أن صلاة الخوف تختلف عن الصلاة في الأمن. قال تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ ۖ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء: ١٠٢].

فقد أمر ربنا في الآية بالأخذ بالحذر مرتين فقال: ﴿ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ﴾ ثم قال: ﴿ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ .

وفيه دلالة عظيمة على ضرورة الأخذ بالأسباب وعدم الاتكال على القدر ، فإن المقدور لا يعلمه إلا الله.

وقريب من ذلك ما ذكره ربنا سبحانه عن العسل أن فيه شفاء للناس فقال: ﴿ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٦٩] ، وجعل ذلك من نعمه سبحانه ، وفيه إشارة إلى طلب الشفاء والتداوي والأخذ بأسباب الشفاء.

وكل ذلك وغيره إشارات إلى ضرورة الأخذ بالأسباب.

٣٩ ـ قال سبحانه في سورة التحريم: ﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ [التحريم: ١٢] .

فقال سبحانه: ﴿ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ ولم يقل (وكانت من القانتات) ، وذلك للزيادة في تكريمها ، فإن القنوت في الذكور أتم وأعلى مما في الإناث ، فإن فيهم الأنبياء والرسل ، بخلاف الإناث. قال سبحانه: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ [يوسف: ١٠٩] .

وقال: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْۚ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣] .

فذكر أنها من القانتين زيادة في تكريمها. جاء في (تفسير أبي السعود): «﴿ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ أي من عداد المواظبين على الطاعة ، والتذكير للتغليب والإشعار بأن طاعتها لم تقصر عن طاعات الرجال حتى

عُدّت من جملتهم»[١]. «فهو أبلغ من قولنا (وكانت من القانتات) أو قانتة»[٢].

٤٠ ـ قال سبحانه في سورة المعارج: ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ [المعارج: ١١ ـ ١٤].

فلم يذكر الوالدين وذلك لعظيم منزلتهما عند الله، فإنه لا يجرؤ أن يذكر الافتداء بهما، فإن ذلك مما يزيد غضب الله عليه، فإن الذي يفتدي إنما يفتدي بما يرضي صاحب الأمر لا بما يغضبه. وقد أمر الله بالإحسان إلى الوالدين وإكرامهما كما قال سبحانه ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾[٣] في أكثر من موضع.

وقال: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ [العنكبوت: ٨].

فلو ذكر الافتداء بهما لقال له ربه: (أهذا ما أمرتك به؟)

(أتغضبني وأنت بين يديّ، أتعصيني وتخالف أمري في مواجهتي يا مجرم؟!)

فلا يجرؤ أن يذكرهما في هذا الموقف.

وفي هذا دلالة عظيمة على منزلة الوالدين عند الله.

قد تقول: ولكنه ذكرهما في عبس فقال: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤ ـ ٣٦].

فما الفرق؟

---

(١) تفسير أبي السعود ٦/ ٣٤٦.

(٢) روح المعاني ٢٨/ ١٦٥.

(٣) انظر: البقرة ٨٣، النساء ٣٦، الأنعام ١٥١، الإسراء ٢٣.

ومن الواضح أن الفرق بينهما ظاهر بيّن ، فما في سورة المعارج في سياق الافتداء بهما لينجو من النار .

وأما ما في عبس ففي سياق الفرار ليخلو المرء إلى نفسه ، فإن لكل امرى في ذلك شأنًا يغنيه. وليس في هذا معصية ولا إهانة لهما ، فإن الإنسان قد يمر في مواقف يريد أن يخلو بنفسه ولا شيء في هذا.

فاختلف الأمران .

ونكتفي بهذا القدر ههنا .

❊ ❊ ❊

الالتفات

هو نقل الكلام من أسلوب إلى آخر كالانتقال من التكلم إلى الخطاب أو إلى الغيبة ، أو من الخطاب إلى التكلم أو إلى الغيبة ، أو من الغيبة إلى التكلم أو إلى الخطاب .

قالوا : وذلك تطرية للسامع وتجديدًا لنشاطه وصيانة له من الملال .

وله أغراض أخرى كالتعظيم والتوبيخ وقصد العموم والمبالغة وغير ذلك من الأغراض[1] .

جاء في (الكشاف) في تفسير قوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ أن الالتفات في علم البيان «قد يكون من الغيبة إلى الخطاب ، ومن الخطاب إلى الغيبة ، ومن الغيبة إلى التكلم كقوله : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم ﴾ [يونس : ٢٢] ، وقوله تعالى ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ ﴾ [فاطر : ٩] .

وقد التفت امرؤ القيس ثلاث التفاتات في ثلاثة أبيات :

تطاول ليلك بالإثمد	ونام الخليّ ولم ترقد
وبات وباتت له ليلة	كليلة ذي العائر الأرمد
وذلك من نبأ جاءني	وخبرته عن أبي الأسود

(١) انظر البرهان للزركشي ٣/ ٣١٤ وما بعدها .

وذلك على عادة افتنانهم في الكلام وتصرفهم فيه ، ولأن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع وإيقاظًا للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد.

وقد تختص مواقعه بفوائد»[١].

ومن أمثلة ذلك أن يُتوسط عند أمير المؤمنين ليعفو عن معتدين فيقول لهم: أمير المؤمنين لا يرضى بالعدوان ولا يحكم إلا بالعدل. يعني نفسه ، ولا يقول: أنا لا أرضى بالعدوان ، وإنما ذكر صفته النافذة.

أو كأن يُعتدَى على جندي فيقول قائد الجيش: قائد الجيش لا يرضى بإهانة أحد جنده وسترون ما يفعله. ولا يقول: أنا لا أرضى بإهانة أحد جنودي وإنما يذكر صفته المقتدرة.

وهو قد يستعمل عندنا في العامية ، وذلك كأن يقول شخص لأخيه وقد فعل فعلاً يراه كبيرًا: (انظر كيف فعل أخوك) يعني نفسه ، أو يسأله أخوه عمن فعل هذا الفعل فيقول له: (هذا ما فعله أخوك) أو (هذا ما فعله أبو الوليد) يعني نفسه.

والالتفات في القرآن كثير ، فهو قد ينتقل من التكلم إلى الخطاب أو إلى الغيبة ، أو من الخطاب إلى غيره ، أو من الغيبة إلى آخر ، بحسب الغرض الذي يراد منه.

ومن ذلك:

١ ـ قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِۗ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

---

(١) الكشاف ١/ ٤٩ ـ ٥٠ وانظر الإيضاح للخطيب القزويني ٧٢ ـ ٧٣.

فالتفت من ضمير المتكلم للتعظيم إلى ذكر الاسم الجليل فقال أولاً: (فضلنا)، ثم قال: ﴿مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ إشارة إلى عظم هذا التفضيل، وليس كتفضيل بعضهم على بعض. وعطف على ذلك بقوله: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ بعود الضمير على الله بالإفراد. ورفع الدرجات ليس كمجرد التفضيل، فكان الالتفات هنا من لطيف المناسبة.

جاء في (روح المعاني) في هذه الآية: «وفي إيراد الاسم الجليل بطريق الالتفات تربية للمهابة ورمز إلى مابين التكليم والرفع وبين ما سبق من مطلق التفضيل وما لحق من إيتاء البينات والتأييد بروح القدس من التفاوت»[1].

ونحو ذلك قوله تعالى في سورة النساء: ﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٣] إلى قوله: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤].

فالتفت من ضمير التعظيم للمتكلم إلى اسمه الجليل على طريق الالتفات ولم يقل (وكلمنا) كما قال في (أوحينا) و(قصصناهم) للإشارة إلى ما بين التكليم وبين الإيحاء الذي فعله ربنا مع عموم النبيين من التفاوت. ويدل على ذلك المجيء بالمصدر المؤكد في قوله (تكليمًا).

٢ ـ قال تعالى في آل عمران: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٩].

فالتفت من الخطاب إلى الغيبة فقال أولاً: ﴿إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ﴾، ثم قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ ولم يقل (إنك لا تخلف الميعاد)، مع أنه قال في الآية قبلها: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ

---

(١) روح المعاني ج٣ ص٢.

أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨] فلم يلتفت، فقال: ﴿لَا تُزِغْ﴾ بالخطاب ﴿وَهَبْ لَنَا... إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ ذلك - والله أعلم - أن قوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ من الدعاء الذي دعوا به لأنفسهم فذكروا صفته.

وأما قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ فهو أمر عام لا يخصهم، وإنما هو يعم جميع الخلق فذكروه باسمه العلم، فهو جامع الناس مؤمنهم وكافرهم.

وأما الآية الأخرى فهو طلب خاص بهم دعوه لأنفسهم، فاستمر الخطاب بلفظ الربوبية المضاف إليهم.

ومما يدل على ذلك قوله سبحانه في آخر السورة: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ١٩٤] وهو من دعاء أولي الألباب لأنفسهم.

فكان الدعاء بالخطاب في قوله: ﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ فلم يلتفت، وإنما هو دعاء باسم الرب المضاف إليهم لأنه خاص بهم. في حين قال في الآية التاسعة: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ ولم يذكروا دعاء لهم، فكان كل تعبير مناسبًا لموضعه الذي ورد فيه.

ويحتمل أن قوله سبحانه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ إنما هو قوله سبحانه وليس قولهم.

جاء في (البرهان) للزركشي: «فإن قلت: قد قال في آخر السورة: ﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ فلم عدل عن الخطاب هنا؟

قلت: إنما جاء الالتفات في صدر السورة لأن المقام يقتضيه. فإن الإلهية تقتضي الخير والشر لتنصف المظلومين من الظالمين، فكان العدول إلى ذكر الاسم الأعظم أولى.

وأما قوله تعالى في آخر السورة: ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ فذلك المقام مقام الطلب للعبد من ربه أن ينعم عليه بفضله وأن يتجاوز عن سيئاته، فلم يكن ما يقتضي العدول عن الأصل المستمر»[(١)].

وجاء في (البحر المحيط): «﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ ظاهر العدول من ضمير الخطاب إلى الاسم الغائب يدل على الاستئناف وأنه من كلام الله تعالى لا من كلام الراسخين الداعين...

ويحتمل أن تكون هذه الجملة من كلام الداعين ويكون ذلك من باب الالتفات، إذ هو خروج من خطاب إلى غيبة لما في ذكره باسمه الأعظم من التفخيم والتعظيم والهيبة، وكأنهم لما والوا الدعاء بقولهم (ربنا) أخبروا عن الله تعالى بأنه الوفي بالوعد، وتضمن هذا الكلام الإيمان بالبعث والمجازاة والإيفاء بما وعد تعالى»[(٢)].

وجاء في (تفسير أبي السعود): «﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾... وإظهار الاسم الجليل مع الالتفات لإبراز كمال التعظيم والإجلال الناشئ من ذكر اليوم المهيب الهائل، بخلاف ما في آخر السورة الكريمة، فإنه مقام طلب الإنعام... وللإشعار بعلة الحكم فإن الألوهية منافية للإخلاف.

وقد جُوّز أن تكون الجملة مسوقة من جهته تعالى لتقرير قول الراسخين»[(٣)].

٣ ـ قال تعالى في سورة النساء: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ

---

(١) البرهان ٣/ ٣٣١.
(٢) البحر المحيط ٢/ ٣٨٧.
(٣) تفسير أبي السعود ١/ ٤٤٢.

جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤] .

فالتفت من المخاطب إلى الغائب ، فقد قال أولاً: (جاؤوك) بالخطاب ، ثم قال ﴿وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ ولم يقل (واستغفرت لهم) ، وذلك لتعظيم منزلة الرسول وأن استغفاره ليس كاستغفار غيره فجاء بصفة الرسول للتعظيم. جاء في (الكشاف): «ولم يقل (واستغفرت لهم) وعدل عنه إلى طريقة الالتفات تفخيمًا لشأن رسول الله ﷺ وتعظيمًا لاستغفاره وتنبيهًا على أن شفاعة من اسمه الرسول من الله بمكان»[(١)] .

ولذا ـ والله أعلم ـ قال في موطن آخر: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [المنافقون: ٦] بضمير الخطاب ، ولم يقل (سواء عليهم أستغفر لهم الرسول أم لم يستغفر لهم) تعظيمًا لصفة الرسول من أن يُرَدّ استغفاره. فإنه لما ذكر صفة الرسول قال: ﴿لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ ولما أراد نفي المغفرة لهم جاء بضمير الخطاب ولم يأت بصفة الرسول.

وقد تقول: وما الفرق بين الاستغفارين؟ ولماذا قال في الأولى: ﴿لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ وقال في الآية الأخرى: ﴿لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ مع أن المستغفر واحد؟

والحقيقة أن الفرق بين السياقين ظاهر ، ذلك أنه ذكر في الآية الأولى أنهم جاؤا نادمين يطلبون مغفرة الله ، فقد قال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ﴾ ، وأما الآية الأخرى فذكر فيها أنهم: ﴿يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ [المنافقون: ٥] .

---

(١) الكشاف ١/ ٤٠٥ وانظر البرهان للزركشي ٣/ ٣٢٨ ، البحر المحيط ٣/ ٢٨٣ .

فالفرق ظاهر ، فجعل كل تعبير في مكانه المناسب. وهو من لطيف التعبير.

٤ ـ قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾ [الأنعام: ٩٩] .

فالتفت من الكلام على الغيبة إلى المتكلم بضمير العظمة. فقد قال أولاً: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ ثم التفت إلى المتكلم قائلاً عن نفسه سبحانه: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾ ليدل على أن الذي قال الكلام هو الله الذي فعل ذلك وليس ذلك إخبارًا من جهة أخرى ، ويدل ذلك على أن القرآن إنما هو كلام الله ، فقد أخبر هو عن نفسه سبحانه.

وهذا ما يفيده عموم الالتفات من ضمير الغيبة إلى ضمير المتكلم عن نفسه سبحانه.

فهو يدل على أن الكلام كلامه سبحانه وأنه هو الذي يقول ذاك.

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أنه يدل بهذا الالتفات على عظيم النعمة بإنزال الماء.

جاء في (روح المعاني): «والالتفات إلى التكلم إظهارًا لكمال العناية بشأن ما أنزل الماء لأجله»[1] .

ونحوه قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ [فاطر: ٩] .

٥ ـ جاء في سورة الأعراف: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ

---

(١) روح المعاني ٧/ ٢٣٨ .

وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨] .

فالتفت من المتكلم إلى الغائب فقد قال أولاً: ﴿إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ ثم قال: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ ولم يقل (فآمنوا بالله وبي) وذلك لأكثر من غرض، فقد قال قبل الآية: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ . . . فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧] .

فذكر الصفات التي سبق ذكرها في الآية السابقة ليدل على أنه هو المقصود والمبشر به. ثم عدل عن ضمير المتكلم إلى صفة الرسالة ليدل على أنه استحق الإيمان بهذا الوصف فآمنوا به لكونه رسول الله.

ثم من ناحية أخرى عدل عن ضمير المتكلم ليصفه بالصفات التي تدعو إلى الإيمان به. ولو قال (فآمنوا بالله وبي) لم يصح وصف الضمير، فإن الضمير لا يوصف فلا يصح أن يقال (فآمنوا بالله وبي النبي الأمي).

وثمة لطيفة أخرى فإنه قال: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ ولم يقل (وبرسوله) ليدل على أن مرتبة الإيمان بالرسول بعد الإيمان بالله، ولم يجعلهما بمرتبة واحدة، فإن قولنا: (فآمنوا بالله وبرسوله) آكد من قولنا: (فآمنوا بالله ورسوله) فإن إعادة حرف الجر فيها توكيد، فدل التعبير القرآني على أن مرتبة الإيمان بالرسول تابعة لمرتبة الإيمان بالله فحذف الباء، ولذا لا نجد في القرآن الكريم نحو (آمنوا بالله وبرسوله) أو (تؤمنون بالله وبرسوله) ولا نحو (فآمنوا بالله وبرسله) وإنما كلها بحذف الباء من الرسول وذلك نحو قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النساء: ١٣٦]، وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النور: ٦٢]، وقوله:

﴿ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [المجادلة: ٤]، وقوله: ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الصف: ١١]، وقوله: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ [آل عمران: ١٧٩]، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ [النساء: ١٥٢].

قد تقول: ولكنه ورد: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٥٤].

فنقول: إننا نفينا ورود ذلك في التعبير بالإيمان وليس بالكفر، والتعبير بالكفر يختلف عن التعبير بالإيمان فقد يكون الكفر بالرسل أكثر وأشد، فقد يكون ثمة من يؤمن بالله ويكفر بالرسول. ولكن لن يكون إيمان بالرسول وكفر بالله؛ لأن الرسول إنما هو رسول الله.

وقد ورد التعبيران بالكفر بالله والرسول بذكر الباء وعدمه مع الرسول، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٨٠]، وقال ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [التوبة: ٨٤].

ومن المعلوم أن القول: (كفر بالله وبالرسول) آكد من القول: (كفر بالله والرسول)؛ وذلك لأن الذكر يفيد التوكيد.

ومن الواضح أن الآية الرابعة والخمسين من التوبة آكد في الكفر من الآيتين الأخريين. فقد قال تعالى: ﴿قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ [التوبة: ٥٣ ـ ٥٤] فذكر الباء مع الرسول.

في حين قال في الآية الثمانين: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٨٠] فذكر الكفر بالله ورسوله.

فقد زاد في أوصافهم في الآية الرابعة والخمسين بأنهم لا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولا ينفقون إلا وهم كارهون ، فاقتضى ذلك الزيادة في وصفهم بالكفر .

ونحو ذلك ما ورد في الآية الرابعة والثمانين ، فقد قال فيها : ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴾ [التوبة : ٨٤] .

فقد ذكر أنهم كفروا بالله ورسوله وأنهم ماتوا وهم فاسقون .

وذكر ذلك وزيادة في سياق الآية الرابعة والخمسين ، فقد وصفهم بالفسق ﴿ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴾ ، وذكر أنهم كفروا بالله وبرسوله ، وزاد في أوصافهم فقال : ﴿ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَـٰرِهُونَ ﴾ [التوبة : ٥٤] فاقتضى ذلك التوكيد في الآية الرابعة والخمسين .

وهذا من دقائق التعبير .

جاء في (الكشاف) في آية الالتفات ، أعني قوله سبحانه : ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا . . . فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ . . . ﴾ : «فإن قلت : هلا قيل (فآمنوا بالله وبي) بعد قوله : ﴿ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ﴾ ؟

قلت : عدل عن المضمر إلى الاسم الظاهر لتجري عليه الصفات التي أجريت عليه ، ولما في طريقة الالتفات من مزايا البلاغة ، وليعلم أن الذي وجب الإيمان به واتباعه هو هذا الشخص المستقل بأنه النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته كائنًا من كان أنا أو غيري إظهارًا للنصفة وتفاديًا من العصبية لنفسه» (١) .

---

(١) الكشاف ١/ ٥٨٢ .

وجاء في (البحر المحيط): «لما ذكر أنه رسول الله أمرهم بالإيمان بالله، وعدل عن ضمير المتكلم إلى الظاهر وهو الالتفات لما في ذلك من البلاغة بأنه هو النبي السابق ذكره في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ﴾ وأنه هو المأمور باتباعه الموجود بالأوصاف السابقة»(١).

وجاء في (روح المعاني): «ولا يخفى ما في هذه الآية من إظهار النصفة والتفادي عن العصبية للنفس وجعلوا ذلك نكتة للالتفات»(٢).

وجاء في (البرهان) للزركشي: «وقوله: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ إلى قوله: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ ولم يقل (بي) وله فائدتان:

أحدهما: دفع التهمة عن نفسه بالعصبية لها.

والثاني: تنبيههم على استحقاقه الاتباع بما اتصف به من الصفات المذكورة من النبوة والأمية التي هي أكبر دليل على صدقه وأنه لا يستحق الاتباع لذاته بل لهذه الخصائص»(٣).

٦ ـ قال تعالى في سورة يونس: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ [يونس: ٢١].

فقال: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ ثم التفت إلى ضمير العظمة فقال: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ ولو لم يلتفت لقال: (قل الله أسرع مكرًا إن رسله يكتبون ما تمكرون) لكنه أراد أن ينتهي تبليغ الرسول بقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ ثم التفت فأخبر عن نفسه سبحانه.

---

(١) البحر المحيط ٤/ ٤٠٥.
(٢) روح المعاني ٩/ ٨٣.
(٣) البرهان٣/ ٣١٧.

ولو لم يلتفت لاحتمل الكلام أكثر من معنى ، من ذلك :

أن يكون القول (إن رسله يكتبون ما تمكرون) من جملة ما أمر الرسول أن يقوله فيكون الرسول مأمورًا أن يقول : (الله أسرع مكرًا إن رسله يكتبون ما تمكرون) .

والآخر : أن يكون الرسول مأمورًا أن يقول : (الله أسرع مكرًا) ، وأما القول : (إن رسله يكتبون ما تمكرون) فإنما هو جملة مستأنفة .

وأما قوله : ﴿ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴾ فإنما هو كلام الله عن نفسه حصرًا .

وهذا التهديد أشد ، فإن تهديد المتكلم للمخاطب أشد من تهديد الغائب .

قد تقول : لقد قال في هذه الآية : ﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ ﴾ ، وقال في آية أخرى : ﴿ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ كَفُورٌ ﴾ [الشورى : ٤٨] فأكد فاعل الإذاقة بـ (إن) فقال : (وإنّا) ولم يؤكده في آية يونس فلماذا؟

والجواب : أن ذلك لأكثر من سبب .

فإنه ذكر في آية الشورى أن الرحمة منه فقال : (منا رحمة) للتخصيص ، أي أن الرحمة منه خاصة وليست من غيره . فناسب ذلك التوكيد في آية الشورى فقال : ﴿ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ﴾ .

هذا من ناحية .

ومن ناحية أخرى أن الكلام في آية يونس على الناس فقد قال قبل الآية : ﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ . . . ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ [يونس : ١٩ ـ ٢٠] .

وقال بعد الآية: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا . . .﴾ [يونس: ٢٢] ويستمر الكلام على الناس.

في حين أن الكلام في آية الشورى على الله فقد قال قبل الآية: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٧].

وقال بعدها: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ [الشورى: ٤٩].

فناسب أن يؤكد بـ (إن) الداخلة على ضمير التعظيم (نا)، وناسب أن يذكر الرحمة منه خاصة، فإن له ملك السماوات والأرض.

ومن لطيف التناسب أن كل آية تناسب مبتدأ السورة التي هي فيها، فقد بدأ سورة يونس في الكلام على الناس فقال: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾ [يونس: ٢].

ومبتدأ سورة الشورى في الكلام على الله فقد قال: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [الشورى: ٣ ـ ٤].

فناسب ذكره سبحانه لنفسه في أول الآية وتوكيده أي (وإنّا. . .)

ثم إن كل تعبير مناسب لخاتمة السورة التي هو فيها.

فخاتمة سورة يونس في الكلام على الناس فقال: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ [يونس: ١٠٨].

وخاتمة سورة الشورى في الكلام على الله فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ

رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٢ ـ ٥٣].

فناسب كل تعبير موضعه الذي ورد فيه.

٧ ـ جاء في سورة يونس: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّۗ...﴾ [يونس: ٢٢ ـ ٢٣].

فالتفت من الخطاب إلى الغيبة فقد قال أولاً: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِۖ﴾، ثم قال: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾، ذلك أنه خاطبهم أولاً لأنهم كانوا حاضرين، ثم لما جرت بهم الفلك صاروا غائبين، فأخبر عنهم ليبين حالهم ويعجّب من أمرهم ويقبح ما آل إليه أمرهم. جاء في (الكشاف): «فإن قلت: ما فائدة صرف الكلام عن الخطاب إلى الغيبة؟

قلت: المبالغة كأنه يذكر لغيرهم حالهم ليعجبهم منها ويستدعي منهم الإنكار والتقبيح»[1].

وجاء في (البحر المحيط): «والذي يظهر ـ والله أعلم ـ أن حكمة الالتفات هنا هي أن قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِۖ﴾ خطاب فيه امتنان وإظهار نعمة للمخاطبين.

والمسيَّرون في البر والبحر مؤمنون وكفار والخطاب شامل، فحسن خطابهم بذلك ليستديم الصالح على الشكر، ولعل الطالح يتذكر هذه

---

(١) الكشاف ٢/ ٧١.

النعمة فيرجع ، فلما ذكرت حالة آل الأمر في آخرها إلى أن الملتبس بها هو باغ في الأرض بغير الحق عدل عن الخطاب إلى الغيبة حتى لا يكون المؤمنون يخاطبون بصدور مثل هذه الحالة التي آخرها البغي» (١) .

وجاء في (البرهان) للزركشي: «فقد التفت عن (كنتم) إلى (جرين بهم) وفائدة العدول عن خطابهم إلى حكاية حالهم لغيرهم لتعجبه من فعلهم وكفرهم ، إذ لو استمر على خطابهم لفاتت تلك الفائدة.

وقيل: لأن الخطاب أولاً كان مع الناس مؤمنهم وكافرهم بدليل قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ فلو قال (وجرين بكم) للزم الذم للجميع ، فالتفت عن الأول إلى الإشارة إلى الاختصاص بهؤلاء الذين شأنهم ما ذكره عنهم» (٢) .

وجاء في (روح المعاني): «وضمير (بهم) لمن فيها وهو التفات للمبالغة في تقبيح حالهم كأنه أعرض عن خطابهم وحكى لغيرهم سوء صنيعهم» (٣) .

٨ ـ قال تعالى في سورة مريم: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا﴾ [مريم: ٨٨ ـ ٨٩] .

فالتفت من الغيبة بقوله: (وقالوا) إلى الخطاب بقوله: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا﴾ ولم يقل: (لقد جاؤا) فالتفت إليهم وخاطبهم ووبخهم على قولهم. والتوبيخ بالخطاب أبلغ من التوبيخ بالغيبة، والإدّ العظيم المنكر.

جاء في (البحر المحيط): «أي قل لهم يا محمد: لقد جئتم ، أو

(١) البحر المحيط ٥/ ١٣٨ ـ ١٣٩ .

(٢) البرهان ٣/ ٣١٨ .

(٣) روح المعاني ١١/ ٩٦ .

يكون التفاتًا خرج من الغيبة إلى الخطاب زيادة تسجيل عليهم بالجرأة على الله ، والتعرض لسخطه ، وتنبيه على عظيم ما قالوا»[١] .

وجاء في (روح المعاني) أنها «ردّ لمقالتهم الباطلة وتهويل لأمرها بطريق الالتفات من الغيبة إلى الخطاب المنبئ عن كمال السخط وشدة الغضب المفصح عن غاية التشنيع والتقبيح وتسجيل عليهم بنهاية الوقاحة والجهل والجرأة .

وقيل : لا التفات ، والكلام بتقدير قل لهم : لقد جئتم»[٢] .

وجاء في (البرهان) للزركشي : «ولم يقل (لقد جاؤا) للدلالة على أن من قال مثل قولهم ينبغي أن يكون موبخًا عليه منكرًا عليه قوله كأنه يخاطب به قومًا حاضرين»[٣] .

٩ ـ جاء في سورة الروم : ﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ [الروم : ٣٩] .

فالتفت من المخاطبين إلى الغائبين ، فقد قال أولاً : ﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾ ثم قال بعد ذلك : ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ . ولم يقل (فأنتم المضعفون) وذلك ليشمل كل من فعل ذلك ولا يخص المخاطبين .

جاء في (الكشاف) : «قوله تعالى : ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ التفات حسن كأنه قال لملائكته وخواص خلقه (فأولئك الذين يريدون وجه الله بصدقاتهم هم المضعفون) فهو أمدح لهم من أن يقول : فأنتم المضعفون .

---

(١) البحر المحيط ٦/ ٢١٨ .

(٢) روح المعاني١٦/ ١٣٩ .

(٣) البرهان٣/ ٣٢٢ ـ ٣٢٣ .

ووجه آخر وهو أن يكون تقديره: فمؤتوه أولئك هم المضعفون.

والحذف لما في الكلام من الدليل عليه. وهذا أسهل مأخذًا، والأول أملأ بالفائدة»[١].

وجاء في (روح المعاني): «والالتفات عن الخطاب حيث قيل (فأولئك) دون (فأنتم) للتعظيم كأنه سبحانه خاطب بذلك الملائكة عليهم السلام وخواص الخلق تعريفًا لحالهم.

ويجوز أن يكون التعبير بما ذكر للتعميم بأن يقصد بـ (أولئك) هؤلاء وغيرهم»[٢].

١٠ ـ قال تعالى في سورة الزخرف: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖۖ وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ كَثِيرَةٞ مِّنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾ [الزخرف: ٧٠ ـ ٧٣].

لقد خاطبهم أولاً بقوله: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ﴾ ثم التفت إلى الغيبة فقال: ﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖۖ﴾، وذلك أنه خاطبهم أولاً فأمرهم بدخول الجنة، ثم ذكر حالهم وهم في الجنة فأخبر عنهم بقوله ﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم. . .﴾ ولم يقل (يطاف عليكم) فيكون من جملة ما خاطبهم به قبل الدخول وإنما أخبر عنهم بعد دخولهم.

ثم قال مخاطبا لهم: ﴿وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ إتمامًا للنعمة وزيادة في السرور ولم يقل (وهم فيها خالدون) بل خاطبهم بذلك لزيادة مسرتهم، ولأن هذا ما يقرره الرحمن وحده لا غيره. جاء في (تفسير أبي السعود):

---

(١) الكشاف ٢/ ٥١٠.

(٢) روح المعاني ٢١/ ٤٦.

«﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم﴾ بعد دخولهم الجنة حسبما أمروا به... ﴿وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ إتمام للنعمة وإكمال للسرور... والالتفات للتشريف»[1].

١١ ـ قال تعالى في سورة الدخان: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ۝٥ رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [الدخان: ٣ ـ ٦].

فالتفت من ضمير المتكلم للتعظيم إلى الاسم الظاهر، فقال أولاً: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ... إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣... إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ﴾ بضمير التعظيم ثم قال: ﴿رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ﴾.

ولو لم يلتفت لقال (رحمة منا).

وقد بيّن الالتفات أن الذي فعل ما ذكر من إنزال الكتاب وغيره هو ربه، وربه هو رب السماوات والأرض وما بينهما كما قال سبحانه في السياق: ﴿رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٦ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الدخان: ٦ ـ ٧] وأنه هو الإله الذي لا إله إلا هو، وأنه ربهم ورب آبائهم الأولين فقال: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [الدخان: ٨].

ثم قال ﴿رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ﴾ فذكر أن الرحمة من ربه إشعارًا بأن الربوبية تقتضي الرحمة للمربوبين.

وإنه أضاف الرب إلى ضمير الرسول ﷺ تشريفًا له وتعظيمًا وإشارة إلى أن إرساله ﷺ إنما هو رحمة للعالمين كما قال سبحانه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

جاء في (الكشاف): «﴿إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ۝٥ رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ﴾ والأصل:

---

(١) تفسير أبي السعود ٦/ ١٠٨.

إنا كنا مرسلين رحمة منا ، فوضع الظاهر موضع المضمر إيذانًا بأن الربوبية تقتضي الرحمة على المربوبين. . .

﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ وما بعده تحقيق لربوبيته وأنها لا تحق إلا لمن هذه أوصافه» (١) .

وجاء في (البرهان) للزركشي : «أصل الكلام : (إنا كنا مرسلين رحمة منا) ولكنه وضع الظاهر موضع المضمر للإنذار بأن الربوبية تقتضي الرحمة للمربوبين للقدرة عليهم أو لتخصيص النبي ﷺ بالذكر أو الإشارة إلى أن الكتاب إنما هو إليه دون غيره ، ثم التفت بإعادة الضمير إلى الرب الموضوع موضع المضمر للمعنى المقصود من تتميم المعنى» (٢) .

وجاء في (روح المعاني) : «وقوله سبحانه : ﴿ مِّن رَّبِّكَ ﴾ وضع فيه الظاهر موضع الضمير ، والأصل (منا) فجيء بلفظ الرب مضافًا إلى ضميره صلى الله تعالى عليه وسلم على وجه تخصيص الخطاب به صلى الله تعالى عليه وسلم تشريفًا له عليه الصلاة والسلام ودلالة على أن كونه سبحانه ربك وأنت مبعوث رحمة للعالمين مما يقتضي أن يرسل الرحمة» (٣) .

١٢ ـ قال تعالى في سورة الفتح : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾ [الفتح : ١ ـ ٣] .

فالتفت من التكلم بنون العظمة إلى الاسم الظاهر ، فقال أولاً : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ ﴾ ثم قال : ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ ﴾ ليبين بذكر الاسم الجليل أن الذي فتح له إنما هو الله ؛ إذ لربما ظن ظان أن الذي فتح له هو ما عنده من الأتباع

---

(١) الكشاف ٣/ ١٠٦ .

(٢) البرهان في علوم القرآن ٣/ ٣٢٩ .

(٣) روح المعاني ٢٥/ ١١٥ .

والجنود فأخبره ربه بأن الذي فتح له إنما هو الله وهو الذي نصره لا غيره.

ثم إن خطابه بقوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ﴾ بصيغة ضمير العظمة للمتكلم يدل على أن الذي يخاطب محمدًا هو الله، وأن المخاطب رسوله، يخبره سبحانه بما يريد.

إن هذا الالتفات فيه إشارتان: إشارة إلى أن الذي فعل ذلك هو الله، وأن الله خاطبه بذلك وأخبره فدل على أنه رسوله.

ثم إنه بعد أن قال له: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ ودلالة ذلك على الرسالة ضمنًا ذكر ذلك تصريحًا بقوله: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الفتح: ٨] فبين بهذه الآية تصريحًا ما أشارت إليه الآية الأولى ضمنًا.

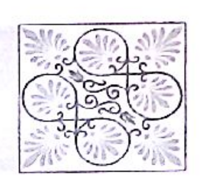
جاء في (البرهان): «وقوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ﴾ ولم يقل (لنغفر لك) تعليقًا لهذه المغفرة التامة باسمه المتضمن لسائر أسمائه الحسنى ولهذا علق به النصر فقال: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾»(١).

وجاء في (روح المعاني): «يمكن أن يكون في إسناد المغفرة إليه تعالى بالاسم الأعظم بعد إسناد الفتح إليه بنون العظمة إيماء إلى أن المغفرة مما يتولاها سبحانه بذاته وأن الفتح مما يتولاه جل شأنه بالوسائط.

وقد صرح بعضهم بأن عادة العظماء أن يعبروا عن أنفسهم بصيغة المتكلم مع الغير لأن ما يصدر عنهم في الأكثر باستخدام توابعهم»(٢).

* * *

(١) البرهان في علوم القرآن ٣/ ٣١٦.
(٢) روح المعاني ٢٦/ ٩١.



سورة محمد

وتسمى سورة القتال أيضًا

إن الطابع الذي طبعت به السورة هو ذكر الأعمال للذين كفروا وللذين آمنوا وعاقبة ذلك ولم تكد تخرج السورة عن ذلك ، فقد قال في الآية الأولى : ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴾ [محمد : ١] .

والآية الثانية هي قوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾ [محمد : ٢] .

فذكر في الآية الأولى الذين كفروا وعملهم وهو الصد عن سبيل الله ، وذكر عاقبة عملهم وهي أنه سبحانه ﴿ أَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴾ .

وذكر في الآية الثانية الذين آمنوا وعملهم وهو الصالحات ، وذكر عاقبة ذلك وهي أنه كفّر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم .

وقد علل سبب ذلك في الآية الثالثة فقال : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَـٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ [محمد : ٣] .

فذكر أن الذين كفروا اتّبعوا الباطل ، والاتّباع إنما هو عمل .

وذكر أن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم .

وهكذا سائر الآيات ، فإنها في أعمال كل فريق والجزاء على ذلك .

ومن الظاهر أن أول هذه السورة مرتبط بآخر السورة التي قبلها ، فإنه

«لا يخفى قوة ارتباط أولها بآخر السورة قبلها واتصاله وتلاحمه بحيث لو سقطت من البين البسملة لكانا متصلاً واحدًا لا تنافر فيه كالآية الواحدة آخذًا بعضه بعنق بعض»(١).

جاء في (التفسير الكبير) للرازي: «أول هذه السورة مناسب لآخر السورة المتقدمة، فإن آخرها قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾»(٢).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [محمد: ١].

* * *

قوله: ﴿وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يحتمل أن يكون معناه أعرضوا عن الإسلام وامتنعوا عن الدخول فيه، ويحتمل أن يكون معناه صدوا غيرهم عنه ومنعوهم(٣).

فإن الفعل (صدّ) قد يكون لازمًا ومصدره (الصدود)، قال تعالى: ﴿رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦١]، ويكون متعديًا ومصدره (الصد) قال تعالى: ﴿وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٦٠]. والمعنيان مرادان، فكلا الصنفين أضل الله أعماله.

---

(١) روح المعاني ٢٦/ ٣٦.
(٢) تفسير الرازي ١٠/ ٣٢، وانظر كتابنا (التناسب بين السور في المفتتح والخواتيم ١٤١ ـ ١٤٢).
(٣) انظر الكشاف ٣/ ١٢٦، البحر المحيط ٦/ ٧٣، التفسير الكبير للرازي ١٠/ ٣٢.

وقوله ﴿أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي أبطلها وأحبطها[١] فجعلها ضائعة ليس لها ثواب «وحقيقة جعلها ضالة ضائعة ليس لها من يتقبلها ويثيب عليها كالضالة من الإبل التي هي بمضيعة لا رب لها يحفظها ويعتني بأمرها»[٢]، ذلك أنه قد كان أو يكون للكافر أعمال فاضلة من تنفيس عن مكروب وإعانة محتاج وصلة رحم وغير ذلك فكل ذلك وغيره ليس له ثواب إذ «لا يقبل الله مع الكفر عملاً»[٣]. جاء في (أضواء البيان) للشنقيطي: «﴿أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي أبطل ثوابها. فما عمله الكافر من حسن في الدنيا كقرى الضيف وبر الوالدين وحمى الجار وصلة الرحم والتنفيس عن المكروب يبطل يوم القيامة ويضمحل ويكون لا أثر له كما قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]»[٤].

ونود أن نذكر أنه لم يرد في غير هذه السورة إضلال العمل، فلم يقل (أضل أعمالهم) ولا (فلن يضل أعمالهم) في غير هذه السورة.

قد تقول: لقد قال تعالى في سورة النساء ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٦٧] فختم آية محمد بإضلال الأعمال، وختم آية النساء بضلال الكافرين فقال (قد ضلوا) فلم ذاك؟

والجواب أن سورة محمد مطبوعة بطابع ذكر الأعمال ـ كما ذكرت ـ وهي أكثر سورة ذكرت فيها الأعمال مجموعة (أعمالهم، وأعمالكم)، فقد قال في الآية الرابعة ﴿فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ وقال: ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [محمد: ٩]، وقال: ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [محمد: ٢٨]، وقال: ﴿وَٱللَّهُ

---

(١) الكشاف ٣/ ١٢٦.

(٢) الكشاف ٣/ ١٢٦ ـ ١٢٧.

(٣) الدر المنثور ١٣/ ٣٥٠.

(٤) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٧/ ٤٤٢.

يَعۡلَمُ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ [محمد: ٣٠] ، وقال: ﴿وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ [محمد: ٣٢] ، وقال: ﴿وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ [محمد: ٣٣] ، وقال: ﴿وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ [محمد: ٣٥] .

فناسب ذلك أن يختم بإضلال الأعمال.

وليس السياق في آيات النساء في نحو ذلك، وإنما السياق في الإخبار عن أصحاب الأعمال إذا ذكرهم وذلك نحو قوله سبحانه: ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾ [النساء: ١٦١] ، وقوله في مؤمني أهل الكتاب بالرسول: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤۡتِيهِمۡ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٦٢] ، وقوله في الذين كفروا وظلموا: ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ طَرِيقًا﴾ [النساء: ١٦٨] ، وقوله: ﴿وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا﴾ [النساء: ١٧٢]، وقوله في الذين آمنوا بالله واعتصموا به: ﴿فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾ [النساء: ١٧٥] .

فناسب كل تعبير موضعه الذي ورد فيه.

ومن لطائف التعبير في الآيتين ذكر الإضلال أو الضلال فيهما ، ذلك أنه قال في الآيتين: ﴿وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ، ومعلوم أن السبيل إنما هو للهداية ، وترك السبيل ضلال ، ولذلك كثيرًا ما اقترن ذكر السبيل بالهداية أو الضلال في القرآن الكريم ، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١١٦] ، وقوله: ﴿ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الحج: ٩] ، وقوله: ﴿رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ [الأحزاب: ٦٧] ، وقوله: ﴿ءَأَنتُمۡ أَضۡلَلۡتُمۡ عِبَادِي هَٰٓؤُلَآءِ أَمۡ هُمۡ ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ﴾ [الفرقان: ١٧] .

وغير ذلك وغيره من اقتران السبيل بالضلال أو الإضلال.

ومما ورد في اقتران السبيل بالهداية قوله سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤].

وقوله: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣].

وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٥١].

وقوله: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٤].

وغير ذلك وغيره.

فناسب ختم آية محمد بقوله: ﴿أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ بذكر الإضلال.

وناسب ختم آية النساء بقوله: ﴿قَدْ ضَلُّوا۟ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ بذكر الضلال، فإن كلتا الآيتين فيمن صد عن سبيل الله، وهو ضلال أو إضلال.

ومن الملاحظ أنه أكد آية النساء بـ (إن) فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ولم يؤكد آية محمد، وإنما قال: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وذلك أنه أخبر في آية النساء عن الذين كفروا وقال عنهم: ﴿قَدْ ضَلُّوا۟ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ فأكد ضلالهم وحققه بـ (قد) ووصفه بأنه ضلال بعيد. فناسب ذلك التوكيد.

في حين أن آية محمد لم يخبر بها عن الكافرين وإنما أخبر بأعمالهم عنهم فقال: ﴿أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾.

فكان كل تعبير مناسبًا لموضعه الذي ورد فيه.

وقد تقول: لقد قال سبحانه في سورة النحل: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨].

فختم الآية بقوله: ﴿زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾ ولم يختمها بالضلال أو الإضلال كما في الآيتين السابقتين فلم ذاك؟

والجواب أن كل تعبير مناسب لما ورد في موضعه ، ذلك أنه قال في آية النحل: ﴿ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴾ فذكر أنهم (كانوا يفسدون) بالماضي المستمر أي كانوا مستمرين على الإفساد. وعاقبة الإفساد العذاب ، وعاقبة الاستمرار على الإفساد الزيادة في العذاب ، فاقتضى فعلهم زيادة العذاب.

فناسب كل تعبير موضعه الذي ورد فيه كما هو ظاهر.

إن الآيات الثلاث هذه[1] جمعت كل ما يتعلق بالذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ، فقد ذكر صفتهم وأعمالهم سواء ما كان من عمل البر أو أعمال السوء وعاقبتهم.

فقد ذكر أنهم ضلوا ضلالاً بعيدًا ، وأن الله أضل أعمالهم وهي ما كان من الأعمال الفاضلة وأنه يزيدهم عذابًا فوق العذاب، وذلك عاقبة الإفساد.

* * *

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾ [محمد: ٢] .

* * *

هذه الآية بمقابل الآية التي قبلها.

فقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ مقابل ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ .

---

(١) وهي قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ . وقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ ضَلَٰلًا بَعِيدًا ﴾ . وقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴾ .

فهؤلاء آمنوا وعملوا الصالحات، وأولئك كفروا وصدوا عن سبيل الله.

وقوله: ﴿وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ تخصيص بعد العموم، إذ لا يقبل إيمان إلا مع الإيمان بما نزل على محمد ﷺ، إذ رب قائل من أهل الكتاب أو من غيرهم يقول: أنا مؤمن بالله وأعمل صالحًا، فأخبر ربنا أنه لا يقبل عمل عامل ولا يعتدّ بإيمانه إلا إذا آمن بما أنزل على محمد، فدين محمد هو الناسخ لما قبله من الأديان ولا يرد عليه النسخ، فإن محمدًا خاتم الأنبياء والمرسلين.

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ أي لا حقّ غيره، فإنه لم يقل (هو حق) وإنما قال (هو الحق) معرفًا بـ (أل) للحصر، فإنه لا حق سواه، ذلك أنه من ربهم. جاء في (الكشاف): «﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾... وقيل هم مؤمنو أهل الكتاب، وقيل هو عام.

وقوله ﴿وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ اختصاص للإيمان بالمنزل على رسول الله ﷺ من بين ما يجب به الإيمان تعظيمًا لشأنه وتعليمًا لأنه لا يصح الإيمان ولا يتم إلا به، وأكد ذلك بالجملة الاعتراضية التي هي قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ وقيل: معناه إن دين محمد هو الحق، إذ لا يرد عليه النسخ، وهو ناسخ لغيره»[1].

وجاء في (روح المعاني): «﴿وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ من القرآن، وخص بالذكر الإيمان بذلك مع اندراجه فيما قبله تنويهًا بشأنه وتنبيهًا على سمو مكانه من بين سائر ما يجب الإيمان به، وأنه الأصل في الكل، ولذا أكد بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ وهو جملة معترضة بين المبتدأ والخبر مفيد لحصر الحقية فيه على طريقة الحصر في قوله تعالى ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾»[2].

---

(١) الكشاف ٣/ ١٢٧ وانظر البحر المحيط ٨/ ٧٣.

(٢) روح المعاني ٢٦/ ٣٧.

وجاء في (التفسير الكبير) للرازي: «قوله ﴿وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ هو في مقابلة قوله في حق الكافر (وصدوا)؛ لأنا بينا في وجه أن المراد بهم صدوا عن اتّباع محمد ﷺ، وهذا حث على اتباع محمد ﷺ، فهم صدوا أنفسهم عن سبيل الله وهو محمد عليه السلام وما أنزل عليه، وهؤلاء حثوا أنفسهم على اتباع سبيله. لا جرم حصل لهؤلاء ضد ما حصل لأولئك، فأضل الله حسنات أولئك وستر على سيئات هؤلاء»[(١)].

وقوله: إنه الحق من ربهم، يعني من القيم على أمرهم ومربيهم ومالك أمرهم والمنعم عليهم، فإن الرب هو القيم والمالك والمنعم والمصلح والمدبر، جاء في (لسان العرب): «ويكون الربُّ المصلحَ ربَّ الشيءَ إذا أصلحه»[(٢)]. «وربّ زيد الأمر ربًّا... إذا ساسه وقام بتدبيره»[(٣)].

فهي أنسب كلمة في هذا المقام، فإن الذي نزل على محمد إنما هو الحق وهو من ربهم الذي يربهم ويرعى أمورهم ويصلحها ويسوسها ويدبرها. وذلك هو الخير كله.

ولذا كان لفظ (الحق) مقرونًا بالرب في مواضع كثيرة من القرآن وذلك نحو قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۖ﴾ [البقرة: ٢٦]، وقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۗ﴾ [البقرة: ١٤٤]، وقوله: ﴿ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۖ﴾ [البقرة: ١٤٧، آل عمران: ٦٠]، وقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۗ﴾ [البقرة: ١٤٩]، وقوله: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ﴾ [الكهف: ٢٩].

---

(١) التفسير الكبير ١٠/ ٣٥.
(٢) لسان العرب (ربب).
(٣) المصباح المنير (الرب).

جاء في (التحرير والتنوير): «ووصف الحق بأنه (من ربهم) تنويه به وتشريف لهم»[(١)].

﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أي سترها فقد «ستر بإيمانهم وعملهم الصالح ما كان منهم من الكفر والمعاصي لرجوعهم عنها وتوبتهم»[(٢)].

﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ أي شأنهم وحالهم. والبال الفكر والقلب[(٣)]. جاء في (التفسير الكبير) للرازي: «قد ذكرنا مرارًا أن الله تعالى كلما ذكر الإيمان والعمل الصالح رتب عليهما المغفرة والأجر كما قال: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الحج: ٥٠]، وقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾ [العنكبوت: ٧].

وقلنا بأن المغفرة ثواب الإيمان والأجر على العمل الصالح...

فنقول ههنا جزاء ذلك قوله: ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ إشارة إلى ما يثيب على الإيمان.

وقوله: ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ إشارة إلى ما يثيب على العمل الصالح»[(٤)].

وهو بمقابل ما قال في الكافرين إنه أضل أعمالهم. فإن ربنا سبحانه أضل ما فعله الكافرون من أعمال البر والخير وأبطله، وإنه كفّر عن المؤمنين سيئاتهم، وأصلح بالهم.

جاء في (التحرير والتنوير): «وقد جاء في مقابلة الأوصاف الثلاثة التي أثبتت للذين كفروا بثلاثة أوصاف ضدها للمسلمين وهي:

---

(١) التحرير والتنوير ٢٦/ ٧٧.
(٢) الكشاف ٣/ ١٢٧.
(٣) انظر الكشاف ٣/ ١٢٧، البحر المحيط ٨/ ٧٠ ـ ٧٣.
(٤) التفسير الكبير ١٠/ ٣٤.

الإيمان مقابل الكفر.

والإيمان بما نزل على محمد ﷺ مقابل الصد عن سبيل الله.

وعمل الصالحات مقابل بعض ما تضمنه (أضل أعمالهم).

و(كفر عنهم سيئاتهم) مقابل بعض آخر مما تضمنه (أضل أعمالهم)، و(أصلح بالهم) مقابل بقية ما تضمنه (أضل أعمالهم) [١].

* * *

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ﴾ [محمد: ٣].

* * *

أي ذلك الأمر الذي ذكره وهو إضلال أعمال الذين كفروا وتكفير سيئات الذين آمنوا وإصلاح حالهم إنما هو بسبب اتباع الذين كفروا الباطل واتباع الذين آمنوا الحق من ربهم.

والباطل هو غير الحق الذي هو من الله. جاء في (تفسير الرازي): «الباطل كل ما سوى الله تعالى» [٢].

جاء في (الكشاف): «(ذلك) مبتدأ وما بعده خبر، أي ذلك الأمر وهو إضلال أعمال أحد الفريقين وتكفير سيئات الثاني كائن بسبب اتباع هؤلاء الباطل وهؤلاء الحق.

ويجوز أن يكون (ذلك) خبر مبتدأ محذوف، أي الأمر كما ذكر بهذا السبب. و(الباطل) ما لا ينتفع به، وعن مجاهد: الباطل الشيطان» [٣].

---

(١) التحرير والتنوير ٢٦/ ٧٤.

(٢) تفسير الرازي ١٠/ ٣٦.

(٣) الكشاف ٣/ ١٢٧.

وجاء في (تفسير ابن كثير): «﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ﴾ أي إنما أبطلنا أعمال الكفار وتجاوزنا عن سيئات الأبرار وأصلحنا شؤونهم؛ لأن الذين كفروا اتبعوا الباطل أي اختاروا الباطل على الحق، وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم» (١).

وتدل الآية على أن الباطل ليس له جهة معينة، بل هي كل ما جاء عن غير الله تعالى، فإنه لم يذكر جهة معينة له، بل أطلقه ليدل على أن كل ما جاء عن غيره سبحانه فهو الباطل، وأن الحق لا يكون إلا من رب العباد فخصصه بقوله: ﴿ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ﴾.

﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ﴾.

أي إن الله يبين للناس مثل ذلك التبيين ليعتبروا وإنه «يبين لهم مآل أعمالهم وما يصيرون إليه في معادهم» (٢).

جاء في (الكشاف): «(كذلك) مثل ذلك الضرب ﴿يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ﴾ والضمير راجع إلى الناس أو إلى المذكورين من الفريقين على معنى أنه يضرب أمثالهم لأجل الناس ليعتبروا بهم» (٣).

وجاء في (روح المعاني): «(أمثالهم) أي أحوال الفريقين المؤمنين والكافرين وأوصافهما الجارية في الغرابة مجرى الأمثال...

وجوز أن يراد بضرب الأمثال التمثيل والتشبيه بأن جعل الباطل مثلاً لعمل الكفار والإضلال مثلاً لخيبتهم، واتباع الحق مثلاً لعمل المؤمنين، وتكفير السيئات مثلاً لفوزهم» (٤).

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ١٧٢.
(٢) تفسير ابن كثير ٤/ ١٧٢.
(٣) الكشاف ٣/ ١٢٧.
(٤) روح المعاني ٢٦/ ٣٨.

وجاء في (التحرير والتنوير): «والمعنى: كهذا التبيين يبين الله للناس أحوالهم فلا يبقوا في غفلة عن شؤون أنفسهم محجوبين عن تحقق كنههم بحجاب التعود لئلا يختلط الخبيث بالطيب. ولكي يكونوا على بصيرة من شؤونهم»(١).

* * *

﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ ۖ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ [محمد: ٤ ـ ٦].

* * *

وردت ثلاثة تعبيرات في القرآن الكريم في لقاء الذين كفروا في الحرب:

الأول: قوله سبحانه في سورة الأنفال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الأنفال: ١٥ ـ ١٦].

والثاني: قوله سبحانه في سورة الأنفال أيضًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٥ ـ ٤٦].

---

(١) التحرير والتنوير ٢٦/ ٧٧.

والثالث: هو ما جاء في سورة محمد.

وهذه الآيات مرتبة بحسب أحداث الحرب.

فالآية الأولى في النهي عن التولي عند الزحف وتهديد من يتولى وعاقبته.

والآية الثانية في الأمر بالثبات عند اللقاء وعدم التفرق والأمر بالصبر، فإن الثبات يحتاج إلى الصبر.

وسياق الآية الثالثة وهي آيات محمد في حكم الأسرى ونهاية الحرب.

فهي مرتبة بحسب الأحداث:

فالأولى عند الزحف.

والثانية عند اللقاء.

والثالثة في الأسرى ونهاية الحرب.

وكأنها في موضع واحد، فآية الزحف وردت أولاً، وآية الثبات بعدها، وآية الأسرى بعدها.

وذكر عاقبة الفرار، وهي أن فاعله باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير. وهو أنسب جزاء له. فليست عاقبة الفارّ أن يرجع فرحًا بنجاته إلى أهله ومأواه، وإنما يرجع بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير وليس مأواه بيته وأهله.

وأما الثابت الصابر فالله معه.

وإن الذي قتل في سبيل الله لن يضل الله عمله بل سيصلح شأنه ويدخله الجنة.

والآن ننظر في آيات سورة محمد وهي قوله:

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾ [محمد: ٤ ـ ٦].

والمقصود من اللقاء هو اللقاء في الحرب، ويوضح ذلك قوله في الآية: ﴿ حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾.

وقوله: ﴿ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ ﴾ أمر بضرب الرقاب وهو القتل. وأصل التعبير (فاضربوا الرقاب) وعبر عن ذلك بالمصدر.

قد تقول: ولكنه عبر عن مثل ذلك في آية أخرى بفعل الأمر وليس بالمصدر، فقد قال في سورة الأنفال: ﴿ فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ [الأنفال: ١٢].

فكلاهما أمر بالضرب. فلماذا أمر في آية محمد بالمصدر، وأمر في آية الأنفال بفعل الأمر؟

والجواب أن آية محمد إنما هي حكم عام ولم تنزل في حالة حرب معينة، وإنما المقصود أنه لو حصلت حرب فلقيتم الذين كفروا فضربَ الرقاب، فجاء بالمصدر الذي هو عام وهو الحدث المجرد غير المقيد بزمن.

وأما آية الأنفال فقد نزلت في حرب واقعة مخصوصة وهي وقعة بدر، والأمر موجه إلى الملائكة، فجاء بالفعل الدال على الزمن، قال تعالى: ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ . . . إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً

لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ [الأنفال: ٩ ـ ١٢].

فالأمر ـ كما ترى ـ موجه إلى الملائكة في حال مخصوصة لا تنطبق على كل حالات الحرب، فأمرهم سبحانه بما أمر ولم يأت بالمصدر الدال على العموم.

جاء في (تفسير الرازي): «في الأنفال الحكاية عن الحرب الكائنة وهم كانوا فيها، والملائكة أنزلوا لنصرة من حضر في صف القتال فصدور الفعل منه مطلوب.

وههنا الأمر وارد وليس في وقت القتال بدليل قوله: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ﴾ والمقصود بيان كون المصدر مطلوبًا لتقدم المأمور على الفعل قال: ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾.

وفيما ذكرنا تبيين فائدة أخرى، وهي أن الله تعالى قال هناك: ﴿وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾؛ وذلك لأن الوقت وقت القتال، فأرشدهم إلى المقتل وغيره إن لم يصيبوا المقتل. وههنا ليس وقت القتال فبين أن المقصود القتل وغرض المسلم ذلك»[1].

ومن الملاحظ أنه أمر بالمصدر المنصوب ولم يأمر بالمصدر المرفوع، فإنه قال: ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ بالنصب ولم يقل (فضربُ الرقاب) بالرفع، كما قال في مكان آخر في آية أخرى: ﴿فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ﴾ بالرفع؛ ذلك لأن الضرب موقوت بالوقعة وليس دائمًا ثابتًا.

---

(١) تفسير الرازي ١٠/ ٣٨.

فإن الرفع ـ كما هو معلوم ـ دالّ على الثبات والدوام؛ لأنه جزء من جملة اسمية، بخلاف المنصوب، فإنه على تقدير فعل، والفعل دال على الحدوث كما هو معلوم.

جاء في (معاني القرآن) للفراء: «وأما قوله ﴿فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ﴾ [البقرة: ١٧٨] فإنه رفع وهو بمنزلة الأمر في الظاهر كما تقول: من لقي العدو فصبرًا واحتسابًا، فهذا نصب، ورفعه جائز.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ رفع، ونصبه جائز.

وإنما كان الرفع فيه وجه الكلام؛ لأنها عامة فيمن فعل، ويراد بها من لم يفعل، فكأنه قال: فالأمر فيها على هذا فيرفع.

وينصب الفعل إذا كان أمرًا عند الشيء يقع ليس بدائم مثل قولك للرجل: إذا أخذت في عملك فجدًّا جدًّا، وسيرًا سيرًا، نصبت لأنك لم تنو به العموم فيصير كالشيء الواجب على من أتاه وفعله . . . وأما قوله: ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ فإنه حثهم على القتل إذا لقوا العدو ولم يكن الحث كالشيء الذي يجب بفعل قبله، فلذلك نصب، وهو بمنزلة قولك: إذا لقيتم العدو فتهليلاً وتكبيرًا وصدقًا عند تلك الوقعة . . . كأنه حثّ لهم»[1].

وهناك لطيفة أخرى وهي استعمال لفظ (الرقاب) في آية محمد دون الأنفال، وهي أن السياق في آية محمد في ذكر الأسرى وذكر حكمهم في المن أوالفداء ومن بقي منهم فهو رقيق وهو ما يسميهم القرآن بـ (الرقاب) وذلك في قوله سبحانه: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ [البلد: ١٣] وقوله في آية الزكاة: ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾ وجعل لهم نصيبًا منها، فناسب ذكر الرقاب في آية محمد دون

---

(١) معاني القرآن١/ ١٠٩ وانظر ٢/ ٣٩، معاني النحو١/ ١٨٦، الجملة العربية والمعنى ٢١٠ ـ ٢١١.

الأنفال التي هي أمر للملائكة. والملائكة ليس عندهم أسرى ولا رقاب، فغاير بين التعبيرين لاختلاف المقامين والله أعلم.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ﴾.

(أثخنتموهم) «أكثرتم قتلهم وأغلظتموهم... أو أثقلتموهم بالقتل والجراح حتى أذهبتم عنهم النهوض»[١].

﴿فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ﴾ أي فأسروهم، والوثاق ما يوثق به[٢].

قد تقول: لقد أمر أولاً بالمصدر فقال: ﴿فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ﴾ وقال بعد ذلك: ﴿فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ﴾ فأمر بفعل الأمر ولم يقل (فشدَّ الوثاق) فيأمر بالمصدر كما قال أولاً فما الفرق؟

والجواب أنه من المعلوم أن الأمر بالمصدر أقوى من الأمر بالفعل، فقولك (صبراً) أقوى وآكد من قولك (اصبر)[٣].

وفي الآية أمران:

الأول: الأمر بضرب الرقاب

والآخر: الأمر بشد الوثاق وهو الأسر.

ولا شك أن ضرب الرقاب آكد وأشد من شد وثاق الأسير.

فجاء للأمر الشديد المؤكد بالمصدر، وبالذي دونه بالأمر بالفعل، فهما ليسا بمرتبة واحدة كما هو معلوم. فإن شد الوثاق منتهٍ إما بالمنّ أو بالفداء كما قال تعالى: ﴿فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَاۚ﴾ بخلاف ضرب الرقاب فكان كل تعبير مناسبًا لحالته.

---

(١) الكشاف ٣/ ١٢٧.

(٢) انظر الكشاف ٣/ ١٢٧.

(٣) انظر الجملة العربية والمعنى ٢١٠ ـ ٢١١.

﴿ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً ﴾ .

وهو منصوب على تقدير فعل مضمر ، أي فإمّا أن تمنّوا وإمّا أن تفادوهم «والمعنى التخيير بعد الأسر بين أن يمنّوا عليهم فيطلقوهم وبين أن يفادوهم» [١] .

«فالمن أن تترك الأسير بغير فداء، والفداء أن يفدي المأسور نفسه»[٢] .

وقدم المن على الفداء ؛ لأنه أيسر ولأنه أقرب إلى الفضل ، فبدأ بما هو أيسر وأفضل لأن من الأسرى من لا يملك الفداء .

والأمر يعود إلى المصلحة العامة التي يقدرها الأمير، فقد يحكم بعدم المن ولا الفداء وإنما الإبقاء عليهم إذا كانت المصلحة العامة تقتضي ذاك .

وقد أجاز بعض النحاة في مثل هذا التعبير الرفع[٣] ولم ترد قراءة بالرفع في هذه الآية .

والنصب أولى في هذا المقام ؛ لأنها حالة موقوتة بالحرب وليست دائمة. والمن أو الفداء حالة موقوتة منتهية بأحدهما .

﴿ حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ .

«أوزار الحرب آلاتها وأثقالها التي لا تقوم إلا بها كالسلاح والكراع. . . وقيل أوزارها آثامها» [٤] .

وفي (معاني القرآن) للفراء أن أوزار الحرب «آثامها وشركها حتى لا يبقى إلا مسلم أو مسالم» [٥] .

---

(١) الكشاف٣/ ١٢٧ .

(٢) معاني القرآن للفراء ٣/ ٥٧ .

(٣) انظر حاشية الصبان٢/ ١١٧ .

(٤) الكشاف ٣/ ١٢٨ وانظر البحر المحيط ٨/ ٧٤.

(٥) معاني القرآن ٣/ ٥٧ .

واختيار أوزار الحرب على الأثقال ليجمع أكثر من معنى وهو اختيار لطيف.

والحرب من ناحية أخرى هي أثقال وهموم يحملها القائمون بها وقوله: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ يجمع كل معاني الأوزار وهو من لطيف الاستعمال.

﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ﴾.

«أي الأمر ذلك، أو افعلوا ذلك»[١].

أي ولو أراد ربك لانتقم منهم بما يريد من أسباب الهلاك والتدمير من حاصب أو رجفة أو زلزال أو خسف أو بالملائكة من غير حرب أو بغير ذلك من أسباب الهلاك[٢].

واختيار لفظ الانتصار على الإهلاك ونحوه فلم يقل مثلاً (ولو يشاء الله لأهلكهم) لأن المقام مقام حرب، والانتصار أنسب في نحو هذا المقام.

﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾.

أي ليمتحن بعضكم ببعض ويختبرهم فيمتحن المؤمنين بالكافرين ليجاهدوهم ويصبروا ويرابطوا فينالوا الأجر العظيم، ويمتحن الكافرين بالمؤمنين فيعذبهم بأيديهم أو يهلكهم أو يأسرهم وما إلى ذلك من نتائج الحرب.

جاء في (الكشاف) في قوله: ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾: «ولكن أمركم بالقتال ليبلو المؤمنين بالكافرين بأن يجاهدوا ويصبروا حتى يستوجبوا الثواب العظيم، والكافرين بالمؤمنين بأن يعالجهم على أيديهم

---

(١) الكشاف ٣/ ١٢٨.

(٢) انظر الكشاف ٣/ ١٢٨، معاني القرآن ٣/ ٥٨.

بعض ما وجب لهم من العذاب»[١].

وجاء في (تفسير القرآن العظيم) لابن كثير: «أي: ولكن شرع لكم الجهاد وقتال الأعداء ليختبركم ويبلو أخباركم كما ذكر حكمته في شرعية الجهاد في سورتي آل عمران وبراءة في قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢].

وقال تبارك وتعالى في سورة براءة: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١٤ ـ ١٥]»[٢].

﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾.

لقد قال ههنا فيمن قتل في سبيل الله: ﴿فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ بالفعل المضارع.

وقال في الآية الأولى في الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله: ﴿أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ بالفعل الماضي، ذلك ـ والله أعلم ـ أن المقتول في سبيل الله يجري عليه عمله الذي كان يعمله، كما جاء في الحديث الصحيح، فقد ورد في صحيح مسلم عن رسول الله ﷺ «رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعمله وأجري عليه رزقه وأمن من الفتان»[٣].

وفي سنن الترمذي «عن رسول الله ﷺ أنه قال: كل ميت يختم على عمله إلا الذي مات مرابطاً في سبيل الله فإنه ينمى له عمله إلى يوم القيامة ويأمن من فتنة القبر»[٤].

---

(١) الكشاف ٣/ ١٢٨.
(٢) تفسير ابن كثير ٤/ ١٧٤.
(٣) صحيح مسلم ٦/ ٥١.
(٤) سنن الترمذي ٦/ ١٦٣.

فالعمل مستمر ولن يضله سبحانه لأنه مستمر غير منته.

وجاء في (تفسير الرازي): «فقال في حق الكافر (أضل) بصيغة الماضي ولم يقل (يضل) إشارة إلى أن عمله حيث وجد عدم وكأنه لم يوجد من أصله.

وقال في حق المؤمن: (فلن يضل) ولم يقل (ما أضل) إشارة إلى أن عمله كلما ثبت عليه أثبت له. فـ(لن يضل) للتأبيد وبينهما غاية الخلاف كما أن بين الداعي والصادّ غاية التباين والتضاد»[(١)].

﴿ سَيَهْدِيهِمْ ﴾ إلى طريق الجنة[(٢)] كما يهدي الظالمين إلى صراط الجحيم كما قال سبحانه: ﴿ ۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [الصافات: ٢٢ ـ ٢٣].

﴿ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴾ أي حالهم وشأنهم.

﴿ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾.

فقد عرفها لهم في الدنيا بذكر أوصافها والنعيم الذي فيها وما أعد لأهلها «ولا حاجة إلى وصفها، فإنه تعالى (عرفها لهم) مراراً ووصفها»[(٣)]، وأعلمها لهم في الآخرة «بما يعلم به كل أحد منزلته ودرجته من الجنة. قال مجاهد: يهتدي أهل الجنة إلى مساكنهم لا يخطئون كأنهم كانوا سكانها منذ خلقوا يستدلّون عليها»[(٤)].

---

(١) تفسير الرازي ١٠/ ٤١.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٧٥.

(٣) تفسير الرازي ١٠/ ٤٢.

(٤) الكشاف ٣/ ١٢٨، وانظر تفسير أبي السعود ٦/ ١٥٢، وانظر تفسير ابن كثير ٤/ ١٧٤.

وقيل: معنى عرّفها طيبها... مأخوذ من العرف وهي الرائحة الطيبة[(١)] ، وكلها محتملة وحاصلة والله أعلم.

* * *

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ۝٧ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴾ [محمد: ٧ ـ ٨] .

* * *

أي: «إن تنصروا دين الله ورسوله (ينصركم) على عدوكم ويفتح لكم.

﴿ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴾ في مواطن الحرب أو على محجة الإسلام»[(٢)] .

«وتثبيت الأقدام عبارة عن النصر في مواطن الحرب، وقيل على الإسلام، وقيل على الصراط»[(٣)] .

وكل ذلك مراد.

وقد ورد تعبير (تثبيت الأقدام) حيثما ورد في مواطن الحرب في القرآن الكريم.

قال تعالى في وقعة بدر: ﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذۡهِبَ عَنكُمۡ رِجۡزَ ٱلشَّيۡطَٰنِ وَلِيَرۡبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمۡ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلۡأَقۡدَامَ ﴾ [الأنفال: ١١] .

وقال سبحانه: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيّٖ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٞ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ

---

(١) النكت والعيون ٤/ ١٢٧.
(٢) الكشاف ٣/ ١٢٨.
(٣) فتح القدير ٥/ ٣٠.

فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦ ـ ١٤٧].

وقال: ﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٠].

ومنها آية محمد هذه.

وأما زلّ القدم فقد ورد بمعنى الخروج عن الإسلام قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل: ٩٤].

والملاحظ أنه خاطب المؤمنين بالشرط فقال: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ فنصر الله للمؤمنين مشروط بنصرهم لله، وجعل الشرط بـ (إن) الشرطية التي تستعمل في المعاني المحتملة الوقوع والمشكوك في حصولها والموهومة والنادرة ونحوها[١]. ولم يأت بـ (إذا) التي تكون للمقطوع بحصوله وللكثير الوقوع[٢] مما يدل على مشقة نصر الله وقلة من يفعل ذلك ويثبت عليه. جاء في (التحرير والتنوير): «وجيء الشرط بحرف (إن) الذي الأصل فيه عدم الجزم بوقوع الشرط للإشارة إلى مشقة الشرط وشدته ليجعل المطلوب به كالذي يشك في وفائه»[٣].

وأما الذين كفروا فقد جعل لهم التعس من دون شرط فإن ذلك حاصل لهم قطعًا.

* * *

---

(١) انظر ابن يعيش٩/ ٤، الإتقان ١/ ١٤٩، معاني النحو٤/ ٥٩.
(٢) انظر معاني النحو ٤/ ٦١.
(٣) التحرير والتنوير ٢٦/ ٨٥.

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴾ [محمد: ٨] .

* * *

التعس هو الهلاك والعثار والسقوط والشر والبعد والانحطاط[١] .

فللمؤمنين النصر وتثبيت الأقدام ، وللكافرين السقوط والانحطاط والهلاك .

«وانتصابه على المصدر بفعل من لفظه يجب إضماره لأنه للدعاء كسقيًا ورعيًا . . .

وما ألطف ذكر ذلك في حقهم بعد ذكر تثبيت الأقدام في حق المؤمنين»[٢] .

وجاء في (البحر المحيط) : «فتعسًا لهم أي هلاكًا بأداة تقوية لقلوب المؤمنين ، إذ جعل لهم التثبيت وللكفار الهلاك والعثرة»[٣] .

وجاء في (تفسير ابن كثير) : «﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ ﴾ عكس تثبيت الأقدام للمؤمنين الناصرين لله تعالى ولرسوله ﷺ»[٤] .

وذكر الفاء في جواب الاسم الموصول فقال : ﴿ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ ﴾ للتوكيد ، فإن الفاء قد تأتي في نحو هذا الموطن للتوكيد[٥] ، فقد أكد حصول التعس للكافرين

ومن الملاحظ أنه قال في الآية الأولى من السورة : ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴾ .

---

(١) القاموس المحيط (التعس) وانظر لسان العرب (تعس) .

(٢) روح المعاني ٢٦/ ٤٤ .

(٣) البحر المحيط ٨/ ٧٠ .

(٤) تفسير ابن كثير ٤/ ١٧٤ .

(٥) انظر معاني النحو ٤/ ١١٠ وما بعدها .

وقال في هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ فزاد لهم التعس على إضلال العمل، وذلك أن المقام في مقام القتال، فقال في الذين آمنوا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾.

وأما الذين كفروا فذكر أن لهم التعس وهو الهلاك والعثار ولهم إضلال العمل أيضًا.

فناسب في مقام الحرب ذكر النصر وتثبيت الأقدام للمؤمنين، وذكر التعس وإضلال الأعمال للكافرين.

ومن الملاحظ أيضًا في هذه الآية أنه ذكر الذين آمنوا من دون زيادة شيء آخر، وذكر في المقابل الذين كفروا من دون زيادة شيء آخر.

أما الآية الأولى فزاد فيها الصد عن سبيل الله.

وذلك أن المقام مختلف، فالآية الأولى هي في عموم الأحوال، وأما هذه الآية فهي في مقام القتال، والقتال صد عن سبيل الله وزيادة، وهي نظير قوله سبحانه ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٢].

فقوله: ﴿سَتُغْلَبُونَ﴾ نظير فتعسًا لهم.

وقوله: ﴿وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ عاقبة إضلال الأعمال، فكلاهما في الآخرة.

فناسب كل تعبير موضعه الذي ورد فيه.

* * *

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [محمد: ٩].

* * *

أي أبطلها. وحقيقة الحبط هو أن ينتفخ بطن الدابة فتموت ، فالحبط قد يأتي بمعنى الموت والهلاك[١].

فمعنى إحباط العمل إماتته وإهلاكه.

ومن لطيف المناسبة أنه قال في الآية قبلها: ﴿فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾

فقال: ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي أضاعها، ثم قال بعدها: ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي أماتها وأهلكها ، فأضاعها أولاً ثم أهلكها وأماتها في حالة ضياعها ، ولم يأت بالإحباط أولاً ثم الإضلال ، فإنها إذا ماتت فلا إضلال ولا إضاعة فإنها ميتة ، والإضلال والإضاعة للموجودات ، فكان التعبير مناسبًا للواقع في الحياة.

إن في هذا السياق مشقتين شديدتين وخسارتين بالغتين: الإضاعة والإهلاك ، فلا أمل يرجونه من أعمالهم ، وهل هناك أمل في الموتى؟!

لقد فقدوا أعز شيء وأغلاه وأرجى ما ينفعهم ، وذلك غاية الحزن والأسى والخسران ، وذلك هو الخسران المبين.

* * *

﴿۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: ١٠ - ١١].

* * *

بعد أن ذكر أنه أحبط أعمالهم ذكّرهم بمن قبلهم وعاقبتهم فقال: ﴿۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ﴾ فإن آثارهم

(١) انظر لسان العرب (حبط).

شاخصة ودلائل هلاكهم لا تزال حاضرة لمن يسير فينظر.

لقد قال: ﴿كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ﴾ بالتذكير ولم يقل (كانت عاقبة) ذلك أنه ذكّر الفعل؛ لأن العاقبة هنا بمعنى العذاب، وهو مذكر. وكل ما ورد في القرآن من تذكير العاقبة فهو بمعنى العذاب، وإذا أنثها فهي بمعنى الجنة، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَـٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٥].

فالتذكير والتأنيث بحسب المعنى، وهذا من لطيف مراعاة المقام[1].

﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ﴾.

الدمار: استئصال الهلاك، أي: استأصلهم. جاء في (الكشاف): «(دمر عليه) أهلك عليه ما يختص به، والمعنى: دمر الله عليهم ما اختص بهم من أنفسهم وأموالهم وأولادهم وكل ما كان لهم»[2].

فدمر عليهم أشد من دمرهم، فإنه دمرهم ودمر ما يختص بهم. وجاء بـ (على) لمعنى الاستعلاء، فأهلكهم وما يختص بهم فغطاهم الهلاك والتدمير.

جاء في (روح المعاني): «يقال: دمره: أهلكه، ودمر عليه: أهلك ما يختص به، فدمر عليه أبلغ من دمره، وجاءت المبالغة من حذف المفعول وجعله نسيًا منسيًا والإتيان بكلمة الاستعلاء، وهي لتضمن التدمير معنى الإيقاع أو الهجوم أو نحوه»[3].

ثم ذكر ربنا أن هذه العاقبة لا تختص بمن سبق من هذه الأقوام، بل

---

(١) انظر كتابنا (معاني النحو) ج٢/ ٥٢ وما بعدها.

(٢) الكشاف ٣/ ١٢٩.

(٣) روح المعاني ٢٦/ ٤٥.

إنها تشمل من يأتي بعدهم من الكافرين فقال: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾ أي أمثال تلك العاقبة والتدميرة[(١)].

* * *

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: ١١].

* * *

أي سبب ذلك التثبيت للمؤمنين ونصرهم وإهلاك الكافرين والتدمير عليهم هو أن الله مولى الذين آمنوا، أي: وليهم وناصرهم، وأن الكافرين لا مولى لهم، فلا ولي لهم ولا ناصر «فيدفع ما حلّ بهم من العقوبة والعذاب»[(٢)].

إن هذه الآية مناسبة لما قبلها، ومناسبة لما بعدها.

فإنه ذكر قبلها أن الله سبحانه ينصر الذين آمنوا ويثبت أقدامهم، فهو مولاهم وناصرهم.

وأن الذين كفروا تعسًا لهم وأضل أعمالهم، وأنه دمر على الذين كفروا ممن سبقهم، ولغيرهم من الكافرين أمثالها فهم لا مولى لهم.

وذكر بعدها أن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار، فالله مولى الذين آمنوا. وأن النار مثوى للذين كفروا فلا مولى لهم.

فالله مولى الذين آمنوا في الدنيا والآخرة.

وإن الكافرين لا مولى لهم لا في الدنيا ولا في الآخرة.

* * *

---

(١) انظر البحر المحيط ٨/ ٧٦.

(٢) روح المعاني ٢٦/ ٤٥ وانظر فتح القدير ٥/ ٣١.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ ﴾ [محمد: ١٢] .

* * *

لقد ذكر سبحانه قبل الآية أن الله أضل أعمال الكافرين وأحبطها وذكر عاقبة الكافرين في الدنيا .

وذكر في هذه الآية عاقبة الكافرين في الآخرة وهي أن النار مثوى لهم .

كما ذكر في السياق أيضًا نصر المؤمنين في الدنيا وعاقبتهم في الآخرة ، وهي أن الله يدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار .

فاستوفت الآية عاقبة المؤمنين والكافرين .

لقد ذكر ربنا في هذه الآية عاقبة الذين آمنوا وعملوا الصالحات .

كما ذكر فيها في المقابل عاقبة الذين كفروا ، وقد أخبر عنهم أنهم يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام .

فالذين آمنوا	بمقابل الذين كفروا .
وعملوا الصالحات	بمقابل يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام
فالمؤمنون يعملون الصالحات	والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام
والذين آمنوا يدخلهم ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار	وأن النار مثوى للكافرين
فالله مولى الذين آمنوا	والكافرون لا مولى لهم

وقوله: ﴿ يَتَمَتَّعُونَ ﴾ أي «ينتفعون بمتاع الحياة الدنيا أيامًا قلائل ' (ويأكلون) غافلين غير مفكرين في العاقبة .

(كما تأكل الأنعام) في مسارحها ومعالفها غافلة عما هي بصدده من النحر والذبح ، أي إن الأكل مشبهًا أكل الأنعام. والمعنى أن أكلهم مجرد من الفكر والنظر» [(١)] .

وفي (تفسير الرازي) قوله تعالى: ﴿كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ﴾ «إن الأنعام يهمها الأكل لا غير والكافر كذلك.

والمؤمن يأكل ليعمل صالحًا ويقوى عليه» [(٢)] .

والنار مثوى لهم ، أي منزل ومقام [(٣)] . والثواء طول المقام مع الاستقرار [(٤)] .

والأنعام بعدما تتمتع وتأكل تذبح وتشوى في النار أو تطبخ عليها ، وهؤلاء بعدما يتمتعون ويأكلون يُلقون في النار ، فهي مثواهم.

ولم يأت في الجنة أنها مثوى للذين آمنوا ، ولعل ذلك لأن من معاني (ثوي) قبر [(٥)] فتكون النار كالقبر لهم ، ولا يحسن ذلك في أهل الجنة والله أعلم.

جاء في (التحرير والتنوير) أنه سبحانه قال: ﴿مَثْوًى لَّهُمْ﴾ «لأن الإخبار عن النار في هذه الآية حصل قبل مشاهدتها ، فلذلك أضيفت في قوله: ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ﴾ ، لأنه إخبار عنها وهم يشاهدونها في المحشر» [(٦)] .

لقد وردت ثلاثة تعبيرات لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ﴾ .

---

(١) الكشاف٣/ ١٢٩ ، وانظر البحر المحيط ٨/ ٧٧.
(٢) تفسير الرازي ١٠/ ٤٥.
(٣) الكشاف ٣/ ١٢٩ ، البحر المحيط ٨/ ٧٧.
(٤) انظر لسان العرب (ثوا) ، تاج العروس (ثوى).
(٥) لسان العرب (ثوا) ، تاج العروس (ثوى).
(٦) التحرير والتنوير٢٦/ ٩٠.

إحداهن: آية محمد التي مر ذكرها.

والأخرى: هي قوله تعالى في سورة الحج: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [الحج: ١٤].

والثالثة: هي قوله تعالى في سورة الحج أيضًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ۝٢٣ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ [الحج: ٢٣ ـ ٢٤].

فما سرّ الاختلاف في خواتيم هذه الآيات؟

والجواب أن آية محمد لقد ذكرناها وذكرنا خاتمتها.

وأما قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ فهو مناسب لسياقه، فقد ورد قبل الآية في الكافر قوله سبحانه: ﴿يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ۝١٢ يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ﴾ [الحج: ١٢ ـ ١٣].

فقد ذكر أن الكافر يدعو من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه، أما الله فهو يفعل ما يريد. وهو بمقابل ما يدعوه الكافر الذي لا يضره ولا ينفعه.

وأما قوله: ﴿يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ﴾ فهو بمقابل ما ذكره ربنا قبل الآية في هذا الصنف: ﴿لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾ [الحج: ٩].

فالكافر يدعو لمن ضره أقرب من نفعه، فهو يخزيه في الدنيا، ويذيقه رب العزة عذاب الحريق في الآخرة.

فالذي يدعوه الكافر ضره أقرب من نفعه لبئس المولى ولبئس العشير.

وأما الذي يدعوه المؤمن فنعم المولى ونعم النصير، فهو يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار بمقابل الكافر الذي يذيقه الله عذاب الحريق.

وأما قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ﴾ [الحج: ٢٣] فهو مناسب لسياقه أيضًا.

فقد ذكر أن الذين كفروا قُطّعت لهم ثياب من نار. وأما الذين آمنوا فلباسهم في الجنة حرير.

وأن الذين كفروا يصب من فوق رؤوسهم الحميم. وأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار.

وأن الذين كفروا لهم مقامع من حديد. وأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يُحلَّون فيها من أساور ذهب ولؤلؤًا.

وأن الذين كفروا كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق.

وأما الذين آمنوا فقد هدوا إلى الطيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد.

فيقال للذين كفروا ذوقوا عذاب الحريق.

وأما الذين آمنوا فقد هدوا إلى الطيب من القول فيما بينهم لا يسمعون فيها لغوًا ولا تأثيمًا إلا قيلاً سلامًا سلامًا.

وهُدوا إلى حمد ربهم في الجنة كما أخبر سبحانه عنهم بقوله: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ﴿٣٣﴾ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾

﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر: ٣٣ ـ ٣٥][1].

وقوله: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ [الزمر: ٧٤].

وقوله سبحانه عنهم: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ١٠].

وهُدوا إلى صراط الحميد في الدنيا والآخرة.

فهم يهديهم إلى الجنة ويهديهم في الجنة إلى أماكن التذاذهم وزيادة سعادتهم كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [يونس: ٩].

فقد جُوّز أن تكون الهداية إلى ما يريدونه في الجنة كما جُوّز أن تكون الهداية في الدنيا لتكون سببًا لدخول الجنة[2].

وكما قال أيضًا: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ١٧٥].

قيل المراد: «هو الإسلام والطاعة في الدنيا وطريق الجنة في الأخرى»[3].

فناسب كل تعبير المقام الذي ورد فيه.

جاء في (التحرير والتنوير): «فقوله: ﴿يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ إلخ، مقابل قوله: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا﴾.

وقوله: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ مقابل قوله: ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ﴾.

---

(١) انظر روح المعاني ١٧/ ١٣٧.

(٢) روح المعاني ١١/ ٧٢ ـ ٧٣.

(٣) روح المعاني ٦/ ٤٣.

وقوله: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ مقابل قوله: ﴿قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾.

وقوله: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ﴾ مقابل قوله: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ فإنه من القول النكد»[١].

* * *

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ [محمد: ١٣].

* * *

(كأيّن) لفظة تفيد التكثير، أي إن كثيرًا من القرى التي هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك، ويعني بها مكة (أهلكناهم) أي أهلكنا أهلها ولم يكن لهم من ينصرهم.

وقال: (أهلكناهم) ولم يقل (أهلكناها) تعظيمًا لمكة لئلا يفهم أن الإهلاك قد يصيبها أيضًا، فإنها أعز على الله وأكرم من أن ينالها إهلاك، وإنما قد يهلك أهلها العتاة كما أهلك غيرهم من الظالمين.

وقد ورد في القرآن الكريم إهلاك القرى في مواطن عدة من القرآن، فقد قال سبحانه: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ [الحج: ٤٥].

وقال: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الحج: ٤٨].

وقال: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ [الأنبياء: ١١].

---

(١) التحرير والتنوير ٧/ ٢٣١.

وقد وصف ربنا قرى كثيرة بالظلم إلا مكة فإنه لم يصفها بالظلم تعظيمًا لها ـ كما ذكر أولو العلم ـ وإنما وصف أهلها به ، قال سبحانه: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٧٥] . ويعني بهذه القرية الظالم أهلها مكة ، «وقد أجمع المفسرون على أن المراد بالقرية الظالم أهلها مكة»[١] .

* * *

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم﴾ [محمد: ١٤] .

* * *

لقد طلب ربنا من عباده الموازنة عن طريق الاستفهام التقريري بين فريقين من الناس: من كان على بينة من ربه ، ومن زُيّن له سوء عمله هل يستويان ؟

وهو «تقرير لتباين حال الفريقين المؤمنين والكافرين ، وكون الأولين في أعلى عليين ، والآخرين في أسفل سافلين ، وبيان لعلة ما لكل منهما من الحال ، والهمزة لإنكار استوائهما»[٢] .

وقال: ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ فبين أن البينة إنما هي من الله ولا تكون من جهة أخرى أيًا كانت تلك الجهة ، فالله وحده هو الهادي لعباده إلى صراطه المستقيم .

---

(١) فتح القدير ١/ ٤٥٠ ، وانظر تفسير الرازي ٤/ ١٤١ .
(٢) روح المعاني ٢٦/ ٤٧ .

وقال: ﴿ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ ﴾ فبنى الفعل (زين) للمجهول ولم يذكر له فاعلاً معينًا ليشمل كل ماعدا البينة من الرب وأيًا كان صاحبها.

وهو نظير قوله السابق: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ [محمد: ٣].

فالباطل ليس له جهة معينة ـ كما سبق أن ذكرنا ـ فكل ما جاء عن غير الله باطل، وأن الحق ليس له إلا جهة واحدة وهو كونه من الله.

ولم يرد في القرآن الكريم إسناد تزيين سوء العمل إلى الله، فلم يقل مرة (زينا لهم سوء أعمالهم) لئلا ينسب السوء إليه سبحانه، وقد قال عن الكافرين: ﴿ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ [النمل: ٤] بإسناد التزيين إليه سبحانه من غير ذكر السوء تأدبًا[1].

وقدم من كان على بينة من ربه مناسبة لتقديم الذين آمنوا وعملوا الصالحات على الذين كفروا في قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ [محمد: ١٢]، ومناسبة لما جاء بعدها من تقديم المتقين في قوله: ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴾ [محمد: ١٥].

﴿ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ﴾ ولم يتبعوا ما يحكم العقل بسلامته وصوابه وإنما اتبعوا الأهواء.

وقال (واتبعوا) بتضعيف الفعل ولم يقل (وتَبِعوا أهواءهم) للمبالغة، فإنهم بالغوا في اتباع الهوى فازدادوا سوءًا على سوء.

* * *

(١) انظر كتابنا (معاني النحو) باب (نائب الفاعل) ٢/ ٦٥ وما بعدها.

﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥].

* * *

مثل الجنة أي صفة الجنة(١).

لقد ذكر ربنا في هذه الآية ما لم يصرح به في موضع آخر.

فقد ذكر أن فيها أنهارًا من ماء، ولم يذكر في موضع آخر أنهارًا من ماء، بل ذكر جنات تجري من تحتها الأنهار، والأنهار في الجنة لا تختص بالماء كما بيّن في هذه الآية، فقد ذكر أنواعًا أخرى من الأنهار.

نعم لقد ذكر الماء في الجنة على العموم، فقد ذكر أن أصحاب اليمين في نعيم ذكر منه الماء المسكوب فقد قال: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ﴾ [الواقعة: ٢٧ ـ ٣١].

وذكر أن أصحاب النار نادوا أصحاب الجنة ﴿أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ [الأعراف: ٥٠].

غير أنه لم يذكر الأنهار من الماء في غير هذه الآية.

وذكر أنهارًا من لبن ولم يرد ذلك في غير هذا الموطن، بل لم يصرح أن في الجنة لبنًا في غير هذا الموضع.

وذكر أنهارًا من خمر، ولم يذكر ذلك في غير هذا الموطن، بل لم يصرح بأن فيها خمرًا. نعم لقد ورد أن أهل الجنة يطاف عليهم بكأس من

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٧٨.

معين ، وأنهم يتنازعون فيها كأسًا لا لغوٌ فيها ولا تأثيم وغير ذلك ، إلا أنه لم يصرح أن المقصود بذلك هي الخمر.

نعم ذكر كثير من المفسرين أنه يعني بذلك الخمر ، غير أنه لم يصرح بها ، بل ربما كانت الكأس ملأى بشراب لا نعلمه.

ثم إنه ذكر الكأس ولم يذكر الأنهار ، فالكأس مما يطاف به على أهل الجنة ، وأما الأنهار فمن صفات الجنة.

وذكر أنهارًا من عسل مصفى ولم يرد نحو ذلك في موضع آخر ، بل لم يرد ذكر العسل تصريحًا في غير هذه الآية. نعم لقد ذكر النحل وأنه ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٦٩].

ومعلوم أن المقصود بذلك إنما هو العسل ، غير أنه لم يرد ذكر العسل إلا في آية محمد هذه.

قد تقول: لكنه لم يقل إن الأنهار تجري كما في الآيات الأخرى. فنقول إن المقصود في هذه الآية إنما هو ذكر الطعوم وليس مجرد ذكر الشيء.

فقوله: ﴿مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ أفاد أنه غير متغير الطعم ولا الرائحة فـ(أسن الماء) وأجن «إذا تغير طعمه وريحه» [١] فعلم من ذلك أنه يجري.

وقوله: ﴿مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾ نفي لجميع وجوه الفساد فيه[٢] ، ومن ذلك أنه لم يحمض[٣].

---

(١) الكشاف ٣/ ١٣٠.
(٢) تفسير الثعالبي ٥/ ٢٣٤.
(٣) روح المعاني ٢٦/ ٤٨.

جاء في (الكشاف): «﴿مِن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾ كما تتغير ألبان الدنيا، فلا يعود قارصًا ولا حازرًا ولا ما يكره من الطعوم»(١).

والملاحظ أنه قال: ﴿لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾ فنفى بـ (لم) التي تقلب زمن المضارع إلى الماضي فهو بقي على حاله منذ أن خلقه الله لم يتغير، ولم يقل (لا يتغير طعمه)، إذ لربما أفهم أنه لا يتغير طعمه بعد دخول أهل الجنة، وأما قبل ذلك فقد كان له طعم آخر، إذ لربما انتهى الطعم إلى طعم آخر، فإن اللبن قد يتغير طعمه في العادة فيصبح حازرًا أو حامضًا أو غير ذلك، ثم يبقى على ذلك فلا يتغير. فنفى بـ (لم) للدلالة على أنه كذلك منذ أوجده الله سبحانه.

وقوله: ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ ذكر طعمها وأنها لذة للشاربين وليس فيها ما عرف عن خمر الدنيا من كراهة الطعم وذهاب العقل والصداع وما إلى ذلك من المكروهات «والمعنى ما هو إلا التلذذ الخالص ليس معه ذهاب عقل ولا خمار ولا صداع ولا آفة من آفات الخمر»(٢).

وقوله: (لذة) قد يكون وصفًا مؤنثًا، وهو تأنيث اللذّ فيقال: لَذّ ولَذّة مثل ضخم وضخمة وعَفّ وعَفّة يقال: رجل عَفّ وامرأة عَفّة أي عفيفة(٣).

وقد يكون مصدرًا وصفت الخمر به أي إنها اللذة بعينها. فالوصف بالمصدر يفيد المبالغة في الوصف كما هو معلوم.

جاء في الكشاف: «﴿لَّذَّةٍ﴾ تأنيث لَذّ، وهو اللذيذ أو وصف بمصدر»(٤).

---

(١) الكشاف ٣/ ١٣٠.

(٢) الكشاف٣/ ١٣٠.

(٣) انظر لسان العرب (عفف)، المصباح المنير (عف).

(٤) الكشاف٣/ ١٣٠.

وقوله: ﴿ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ﴾ والعسل معروف الطعم وقد أبعد عنه ما يكره من الشمع أو غيره فهو «لم يخرج من بطون النحل فيخالطه الشمع وغيره»[1].

جاء في (تفسير الرازي): «ثم عرى كل واحد من الأشياء الأربعة عن صفات النقص التي هي فيها وتتغير بها الدنيا.

فالماء يتغير يقال: أسن الماء يأسن على وزن أمن يأمن فهو آمن.

وأسن اللبن إذا بقي زمانًا تغير طعمه.

والخمر يكرهه الشارب عند الشرب.

والعسل يشوبه أجزاء من الشمع ومن النحل يموت فيه كثيراً»[2].

فالقصد من هذه الآية ذكر الطعوم والتعرية عما يستكره من الصفات «وبدئ من هذه الأنهار بالماء وهو الذي لا يستغنى عنه في المشروبات.

ثم باللبن إذ كان يجري مجرى الطعوم في كثير من أقوات العرب وغيرهم.

ثم بالخمر لأنه إذا حصل الري والمطعوم تشوقت النفس إلى ما يلتذ به.

ثم بالعسل لأن فيه الشفاء في الدنيا مما يعرض من المشروب والمطعوم فهو متأخر في الرتبة»[3].

وليس في هذا الموضع وحده ذكر أمور في الجنة لم تذكر في موضع آخر بل قد يذكر في مواضع أخرى ما لم يرد في غيرها، من ذلك ماذكره في سورة الإنسان من عين السلسبيل في قوله: ﴿ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴾ [الإنسان: ١٨] ولم يرد ذلك في موضع آخر.

---

(١) الكشاف ٣/ ١٣٠.

(٢) تفسير الرازي ١٠/ ٤٧.

(٣) البحر المحيط ٧/ ٧٩.

ونحو ما ذكره في سورة المطففين من عين التسنيم في قوله: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ۝٢٧ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: ٢٧ ـ ٢٨].

وغير ذلك.

ثم إنه بعد أن ذكر المشروب أشار إلى المأكول[١] فقال: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾. فذكر المشروب والمطعوم.

﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾.

أي ولهم مغفرة من ربهم، ولم يقل (ولهم فيها مغفرة من ربهم) كما قال في الثمرات: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ ذلك أن المغفرة قبل دخول الجنة وهي سبب دخولهم الجنة.

وقد يكون ذلك على احتمال تقدير (فيها) أيضًا، فتكون المغفرة للمتقين قبل دخول الجنة وبعد دخولها للدلالة على رفع التكليف فيما يتنعمون به من غير حساب من مأكل أو مشرب أو غير ذلك.

جاء في (تفسير الرازي): «﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾: ولهم المغفرة قبل دخولها.

والثاني هو أن يكون المعنى لهم فيها مغفرة، أي رفع التكليف فيأكلون من غير حساب بخلاف الدنيا»[٢].

«وقد يقال: المراد بالمغفرة هنا ستر ذنوبهم وعدم ذكرها لهم لئلا يستحيوا فتتنغص لذتهم، والمغفرة السابقة ستر الذنوب وعدم المؤاخذة بها»[٣].

---

(١) تفسير الرازي ١٠/ ٤٧.

(٢) تفسير الرازي ١٠/ ٤٧ ـ ٤٨.

(٣) روح المعاني ٢٦/ ٤٩.

فلم يذكر (فيها) للإطلاق وليشمل كل أحوال المغفرة مما نعلم ومما لا نعلم والله أعلم.

وقال: ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ فقال (من ربهم) أي القيّم على أمرهم والمنعم عليهم وسيدهم ومالكهم، فذكر الرب هنا مناسب لما ذكر من النعم.

﴿كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾.

أي أأصحاب الجنة التي ذكر شيئًا من نعيمها كمن هو خالد في النار وسقوا ماء حميمًا؟ أي حارًّا منتهى الحرارة «قيل إذا دنا منهم شوى وجوههم وانمازت فروة رؤوسهم، فإذا شربوه قطع أمعاءهم»[1].

وقال (فقطّع) بالتضعيف ولم يقل (فقطَع) للدلالة على كثرة التقطيع والمبالغة فيه.

فذكر ما يسقى أهل الجنة وما يسقى أهل النار.

لقد ختم المشروبات لأهل الجنة بالعسل المصفى الذي فيه شفاء للناس في الدنيا.

وذكر المشروب الذي يقطع أمعاء الكافرين.

فذكر للمؤمنين ما فيه الشفاء، وللكافرين ما يقطّع الأمعاء، فشتان ما بين الحالتين.

* * *

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٦].

* * *

(١) الكشاف ٣/ ١٣٠.

هم المنافقون كانوا يحضرون مجلس رسول الله ﷺ ويسمعون كلامه ولا يلقون له بالاً تهاونًا منهم ، حتى إذا خرجوا من عنده قالوا لأولي العلم من الصحابة: ماذا قال في الوقت القريب منا؟[(١)] «وذلك على سبيل الهزء والاستخفاف أي لم نفهم ما يقول ولم ندرِ ما نفع ذلك.

آنفًا: الساعة الماضية القريبة منا»[(٢)]

وقال هنا: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ وفي آية أخرى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ [يونس: ٤٢] ، ذلك أن المستمعين في آية يونس أكثر فجاء بواو الجماعة.

ففي آية محمد ذكر من كانوا في مجلسه من المنافقين وهم قلة.

أما آية يونس فقد ذكر فيها من يستمع إليه على العموم ولم يحدده في مجلس ، قال سبحانه: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ٤٢] فذكر الصم على العموم.

وكذا كل ما ورد في القرآن من قوله (من يستمع) و (من يستمعون) ، فإن (من يستمعون) أكثر من (من يستمع)[(٣)].

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾.

أي ختم عليها وغطاها فلا تعي ، «يقال طبع الله على قلوب الكافرين نعوذ بالله منه أي ختم فلا يعي وغطى ولا يوفق لخير»[(٤)].

والطبع أشد من الختم ، جاء في (الفروق اللغوية) في الفرق بين

---

(١) انظر الكشاف ٣/ ١٣٠.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٧٩.

(٣) انظر كتابنا (معاني النحو) ١/ ١٢٦ وما بعدها في باب (الاسم الموصول).

(٤) لسان العرب (طبع).

الطبع والختم «أن الطبع أثر يثبت في المطبوع ويلزمه ، فهو يفيد من معنى الثبات واللزوم ما لا يفيده الختم ، ولهذا يقال: طبع الدرهم طبعًا. وهو الأثر الذي يؤثره فيه فلا يزول عنه. كذلك أيضًا قيل طبع الإنسان لأنه ثابت غير زائل» [١].

لقد ذكر ربنا فيمن طبع الله على قلوبهم أنهم لا يسمعون ولا يعلمون ولا يفقهون. قال تعالى: ﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأعراف: ١٠٠].

وقال: ﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٩٣]، وقال: ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ٨٧].

فقولهم: ﴿مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾ جمع كل هذه المساوئ ، فقد نفى عنهم السمع والعلم والفقه. فكأنهم لم يسمعوا ماذا قال ، فسألوا: ماذا قال ؟

ولم يعلموا ولم يفقهوا قوله فأرادوا فهم ما قال فسألوا الذين أوتوا العلم.

فجمع بقوله: ﴿طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ كل هذه المساوئ التي ذكرت في مواضع متعددة. ولذا لم يذكر حالة من حالات الطبع بل أطلقها ليشملها كلها.

﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ﴾.

فذكر عنهم أمرين كلاهما سيّء: الطبع على قلوبهم ، واتباع الهوى.

وقال: ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ﴾ بالتضعيف ولم يقل (وتَبِعوا) للمبالغة في اتّباع الهوى.

* * *

---

(١) الفروق اللغوية ٧٢.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ [محمد: ١٧] .

* * *

بعد أن ذكر ربنا الذين طبع الله على قلوبهم من المنافقين واتّبعوا أهواءهم ذكر الذين اهتدوا بمقابل أولئك .

فذكر في الآية السابقة من يستمع إلى رسول الله من المنافقين ولا يلقي له بالاً تهاونًا منه .

وذكر في هذه الآية الذين استمعوا إلى رسول الله فزادهم ذلك هدى .

وذكر في الآية السابقة أنهم طبع الله على قلوبهم .

وذكر بمقابل ذلك أن الذين اهتدوا زادهم هدى .

فأولئك طبع الله على قلوبهم .

وهؤلاء زادهم هدى .

وذكر أن أولئك اتبعوا أهواءهم .

وأما هؤلاء فآتاهم تقواهم ، فاتقوا الله في القول والعمل .

«فقوبل ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ بقوله سبحانه : ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾ ؛ لأن الطبع يحصل من تزايد الرين وترادف ما يزيد في الكفر. وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾ بقوله جل وعلا : ﴿وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ فيحمل على كمال التقوى .

ثم في إسناد إيتاء التقوى إليه تعالى وإسناد متابعة الهوى إليهم إيماء إلى معنى قوله تعالى حكاية : ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ ، وتلويح إلى أن متابعة الهوى مرض روحاني ، وملازمة التقوى دواء إلهي»[1] .

---

(١) روح المعاني ٢٦/ ٥١ .

جاء في (تفسير الرازي): «لما بين الله تعالى أن المنافق يستمع ولا ينتفع، ويستعيد ولا يستفيد، بيّن أن حال المؤمن المهتدي بخلافه، فإنه يستمع فيفهم ويعمل بما يعلم، والمنافق يستعيد، والمهتدي يفسر ويفيد»[١].

وقوله: ﴿زَادَهُمْ هُدًى﴾ يحتمل أن الفاعل هو استماعهم إلى رسول الله ﷺ. فالمنافقون يقولون: ماذا قال آنفًا؟ والمهتدون زادهم ذلك هدى.

ويحتمل أن الفاعل هو الله. ويقوي ذلك قوله تعالى في المنافقين: ﴿طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾.

ويقابل ذلك أن الله سبحانه زاد الذين اهتدوا هدى.

فأولئك طبع على قلوبهم، وهؤلاء زادهم هدى. كما قال سبحانه في آية أخرى: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾ [مريم: ٧٦].

كما يقوي ذلك المعطوف وهو قوله سبحانه: ﴿وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾، فالله آتاهم تقواهم، وهو الذي زادهم هدى.

وذهب آخرون إلى أن استهزاء المنافقين زادهم هدى[٢].

جاء في (تفسير الرازي): «ما الفاعل للزيادة في قوله (زادهم)؟

نقول فيه وجوه:

الأول: المسموع من النبي عليه الصلاة والسلام من كلام الله وكلام الرسول، يدل عليه قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ فإنه يدل على مسموع. والمقصود بيان التباين بين الفريقين.

---

(١) تفسير الرازي ١٠/ ٥٠.
(٢) انظر معاني القرآن للفراء ٣/ ٦١.

فكأنه قال: هم لم يفهموه، وهؤلاء فهموه.

والثاني: أن الله تعالى زادهم ويدل عليه قوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ ﴾.

وكأنه تعالى طبع على قلوبهم فزادهم عمى، والمهتدين زادهم هدى.

والثالث: استهزاء المنافق زاد المهتدي هدى»[1].

والذي يترجح عندي أن الله زادهم هدى بهذه الأسباب، فهذه أسباب جعلها الله تزيد في هداهم والله أعلم.

﴿ وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ﴾.

قيل: إن المعنى أعانهم عليها أو آتاهم جزاء تقواهم[2].

وفي(تفسير الرازي): «قيل فيه إن المراد آتاهم ثواب تقواهم. وقيل آتاهم نفس تقواهم من غير إضمار، يعني بين لهم التقوى. وقيل آتاهم توفيق العمل بما علموا»[3].

* * *

﴿ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗۖ فَقَدۡ جَآءَ أَشۡرَاطُهَاۚ فَأَنَّىٰ لَهُمۡ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ ذِكۡرَىٰهُمۡ ﴾ [محمد: ١٨].

* * *

أي لم يعتبروا بما مر من الأحداث في الأمم الماضية وعاقبتهم. ولم يعتبروا ويتعظوا بالآيات واستماعهم إلى رسول الله ﷺ. فماذا ينتظرون؟ وبم ينتفعون؟

---

(١) تفسير الرازي ١٠/ ٥٠.
(٢) البحر المحيط ٨/ ٧٩.
(٣) تفسير الرازي ١٠/ ٥٠.

فلم يبق إلا الساعة أن تأتيهم فجأة فلا ينفعهم عند ذلك إيمان ولا ذكرى.

والساعة قريبة، فقد جاءت علاماتها، وذلك قوله سبحانه: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾.

والأشراط هي العلامات. جاء في (روح المعاني): «وقوله تعالى ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾ أي علاماتها وأماراتها... تعليل لمفاجأتها، على معنى أنه لم يبق من الأمور الموجبة للتذكر أمر مترقب ينتظرونه سوى إتيان نفس الساعة، إذ جاء أشراطها فلم يرفعوا لها رأسًا ولم يعدوها من مبادي إتيانها فيكون إتيانها بطريق المفاجأة لا محالة» [١].

وجاء في (تفسير الرازي): «يعني الكافرون والمنافقون لا ينظرون إلا الساعة، وذلك لأن البراهين قد صحت والأمور قد اتضحت وهم لم يؤمنوا فلا يتوقع منهم الإيمان إلا عند قيام الساعة» [٢].

وقد تقول: ولم قال (أشراطها) ولم يقل (علاماتها)؟

والجواب أن «أشراط الشيء أوائله... ومنه أشراط الساعة... وأشراط كل شيء ابتداء أوله» [٣].

والذي جاء من علامات الساعة آنذاك أوائلها.

وقد تقول: ولم قال: ﴿فَقَدْ جَآءَ﴾ ولم يقل (فقد جاءت)؟

والجواب أن كلا التعبيرين صحيح فصيح، غير أن التأنيث في نحو هذا التعبير يفيد الكثرة كما هو معلوم في اللغة [٤].

---

(١) روح المعاني ٢٦/ ٥٢.
(٢) تفسير الرازي ١٠/ ٥١.
(٣) لسان العرب (شرط).
(٤) انظر (معاني القرآن) للفراء ١/ ٤٣٥ وانظر كتابنا (بلاغة الكلمة في التعبير القرآني) ٩٤.

والأشراط لم تكن كثيرة في زمن الرسول بل هي أوائلها.

فناسب التذكير.

﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾.

أي وماذا تنفعهم الذكرى إذا جاءتهم الساعة؟

جاء في (روح المعاني): «أي فكيف لهم ذكراهم، على أن (أنّى) خبر مقدم، و(ذكراهم) مبتدأ، و(إذا جاءتهم) اعتراض وسط بينهما رمزًا إلى غاية سرعة مجيئها...

وقيل (أنى) خبر لمبتدأ محذوف، أي فأنى لهم الخلاص إذا جاءتهم الذكرى بما يخبرون به فينكرونه منوطة بالعذاب»(١).

وفصل بين المبتدأ والخبر بقوله: ﴿إِذَا جَآءَتْهُمْ﴾؛ لأن الكلام على الساعة ومجيئها، فقدمها على المبتدأ للاهتمام.

وجاء في (تفسير الرازي): «يعني لا تنفعهم الذكرى... ومعنى ذلك يحتمل أن يكون هو قوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]. ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [الصافات: ٢١] فيذكرون به للتحسر، وكذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ [الزمر: ٧١]»(٢).

قد تقول: لقد قال في آية أخرى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الأنعام: ٤٠].

فقال: ﴿أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ باستعمال الفعل (أتى)، وقال في آية

---

(١) روح المعاني ٢٦/ ٥٢.
(٢) تفسير الرازي ١٠/ ٥٢.

محمد هذه: ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾ فقال (جاءتهم) باستعمال الفعل (جاء)، فما الفرق؟

فنقول: ليس هذا هو الاختلاف الوحيد، وإنما هناك اختلاف آخر، فقد استعمل أداة الشرط (إن) في آية الأنعام، واستعمل (إذا) في آية محمد، وذلك أن (إن) ـ كما هو مقرر في علم النحو ـ إنما هي للأمور المشكوك فيها أو النادرة أو الموهومة أو المستحيلة أو القليلة الحصول.

و(إذا) إنما هي للأمور الكثيرة والمقطوع بحصولها.

والكلام في آية الأنعام إنما هو افتراض وسؤال عن أمر لو كان فكيف سيكون الحال؟ وذلك قوله سبحانه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ﴾ أي أخبروني لو حصل هذا أغير الله تدعون؟

ونحو ذلك كل ما ورد في القرآن الكريم من استعمال (أرأيتكم) و(أرأيتم) فإنه يستعمل معها (إن) ولا يستعمل (إذا).

وأما آية محمد فهي فيما هو واقع أو قريب الوقوع لا شك في حصوله، فقد ذكر أن الساعة قريبة وأن علاماتها قد جاءت فلم يبق إلا مجيئها.

وهذا أقرب إلى الحصول وأدل على الوقوع، فجاء بـ (إذا) التي هي للكثير الحصول أو المتيقَّن والمقطوع بحصوله[1].

وأما استعمال (جاء) و(أتى) فإنه ذكر في الفرق بينهما أن الإتيان مجيء بسهولة وأن المجيء لما هو أصعب وأشق[2]. وأن المجيء في آية محمد أشق؛ ذلك أنه قال في آية الأنعام: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٤٠ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٤٠ ـ ٤١].

---

(١) انظر كتابنا (معاني النحو) ٤/ ٥٩ وما بعدها (معاني أدوات الشرط ـ إن، إذا).

(٢) انظر كتابنا (من أسرار البيان القرآني) ٤٠.

فذكر أنهم يدعون الله ولا يدعون غيره ، وأنه سبحانه يكشف ما يدعون إليه إن شاء .

وأما في آية محمد فقد قال : ﴿ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ﴾ أي لا ينفعهم شيء ، فلم يذكر أنهم يدعون وما إلى ذلك . وهذه الحال أصعب وأشق مما ورد في الأنعام .

فجاء لما هو أصعب وأشق بـ (جاء) .

ونحو ذلك قوله سبحانه في سورة الأنعام : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَاءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ [الأنعام : ٣١] فاستعمل (جاء) لمجيء الساعة ، وهي نظير آية محمد .

فكل تعبير مناسب لسياقه الذي ورد فيه .

* * *

﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴾ [محمد : ١٩] .

* * *

إن هذه الآية مناسبة لما قبلها ، فإن الآية التي قبلها هي في الكلام على مجيء الساعة ، وذكر في هذه الآية النجاة فيها .

والنجاة في الساعة إنما تكون بأمرين :

الأول : هو التوحيد وذلك قوله : ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ ولا ينجو أحد من غير الاعتقاد بالتوحيد .

والآخر : هو مغفرة الذنوب وهو ما يتعلق بالعمل وذلك قوله : ﴿ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ ﴾ .

فالنجاة والفوز في الساعة إنما يكونان بهذين الأمرين اللذين ذكرهما سبحانه في الآية.

وقدم التوحيد على الاستغفار؛ لأنه الأهم ولأنه لا تكون مغفرة لمن لم يوحد الله بل سيحبط أعمالهم.

ثم ذكر أن الله يعلم أحوالكم في التصرف والعمل والاستقرار وما تعملون فيهما.

وفي التقلب والمثوى يكون العمل للنجاة أو للعقوبة في الآخرة.

وذكر الرازي أمرًا آخر للمناسبة فقال: «ولبيان المناسبة وجوه:

الأول: هو أنه تعالى لما قال: ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾ قال: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ يأتي بالساعة، كما قال تعالى: ﴿أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ [النجم: ٥٧ ـ ٥٨].

وثانيها: ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾ وهي آتية، فكأن قائلاً قال: متى هذا؟ فقال: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ فلا تشتغل به، واشتغل بما عليك من الاستغفار، وكن في أي وقت مستعدًّا للقائها. ويناسبه قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾.

الثالث: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ ينفعك.

فإن قيل: النبي عليه الصلاة والسلام كان عالمًا بذلك، فما معنى الأمر؟

نقول عنه من وجهين:

أحدهما: فاثبت على ما أنت عليه من العلم، كقول القائل لجالس يريد القيام: اجلسْ، أي لا تقم.

ثانيهما: الخطاب مع النبي عليه الصلاة والسلام والمراد قومه، والضمير في (أنه) للشأن»[(١)].

وقوله: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ يفيد طلب الثبات على ما هو عليه من العلم بذلك، وإلا فإنه ﷺ أعلم الناس بذلك، وهو نظير قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ١] أي: استمر على ذلك، وإلا فهو أتقى المكلفين لله سبحانه. وهو أول من دعا إلى التوحيد.

والدخول في الإسلام إنما يكون بالنطق بالشهادتين.

وفسر صاحب (الكشاف) ذلك بقوله: «فاثبت على ما أنت عليه من العلم بوحدانية الله»[(٢)].

﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ﴾.

قيل في ذلك أقوال، منها أن ذلك يدل «على التواضع وهضم النفس، إذ أمره بالاستغفار، ومع غيره بالاستغفار لهم»[(٣)].

وإلا فهو ﷺ معصوم من الذنوب.

وقيل: «هو ترك الأفضل الذي هو بالنسبة إليه ذنب، وحاشاه من ذلك»[(٤)].

وجاء في (النكت والعيون): «﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ يحتمل وجهين:

أحدهما: يعني استغفر الله أن يقع منك ذنب.

الثاني: استغفر الله ليعصمك من الذنوب»[(٥)].

---

(١) تفسير الرازي ١٠/ ٥٢.

(٢) الكشاف ٣/ ١٣١ وانظر روح المعاني ٢٦/ ٥٥.

(٣) البحر المحيط ٨/ ٨٠ وانظر الكشاف ٣/ ١٣١.

(٤) تفسير الرازي١٠/ ٥٢.

(٥) النكت والعيون ٤/ ١٣٢.

وقيل: «أي لتستنّ أمتك بسنتك»[١].

وجاء في (التحرير والتنوير): «﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ ومن اللطائف القرآنية أن أمر هنا بالعلم قبل الأمر بالعمل في قوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ . . .

وما يستغفر منه النبي ﷺ ليس من السيئات لعصمته منها، وإنما هو استغفار من الغفلات ونحوها»[٢].

ونود أن نقول هنا:

إن الأمر بالاستغفار قد لا يكون عن ذنب، وإنما هو من العبادات القولية، فقد يرى العبد أنه لا يفي حق الله في الطاعة ـ وهو كذلك ـ فيستغفر ربه. أو إن الإنسان قد يكون غافلاً عما ينبغي أن يفعل، أو غافلاً عما يفعل مما لا يحسن فعله، أو ما لا يحسن من قول، أو يرى أنه قصر عما اعتاد عليه من الطاعة وفعل الخير كما قيل: (حسنات الأبرار سيئات المقربين)، أو غير ذلك، فيكون الاستغفار جابرًا لذلك. كما أنه هو من باب الاستزادة من الخير والطاعة.

وقد أمر ربنا رسوله بالاستغفار في مواطن ليس فيها عمل ينبغي الاستغفار منه، بل ربما يكون ذلك من باب إتمام النعمة والشكر عليها، وذلك نحو قوله في سورة النصر: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ [النصر: ١ ـ ٣].

وقد يكون من أمر لا علم له ﷺ بحقيقته فقضى، أو قال بما توفر من

---

(١) تفسير الثعالبي ٥/ ٢٣٧.

(٢) التحرير والتنوير ٢٦/ ١٠٥.

الأدلة ، فبين الله حقيقة الأمر وأمره بالاستغفار ، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ [النساء: ١٠٥ ـ ١٠٩] . . . إلى آخر الآيات .

وذلك في حادثة حكم بها أو كاد لمنافق على مسلم حتى بين الله له ذلك وفضح أمر المنافق وأمره ربنا بالاستغفار(١) .

وكان الأنبياء يستغفرون الله . وقد يكون استغفارهم عن أمر رأوه أنه خلاف الأَولى مما ليس لهم به علم ، أو لو لم يكن لكان أفضل ، وذلك نحو ما ذكره ربنا عن نوح عليه السلام حينما غرق ابنه مع الكافرين فنادى ربه قائلاً : ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [هود: ٤٥] ظانًّا أن ربه وعده بنجاة أهله أجمعين فقال له ربه : ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [هود: ٤٦ ـ ٤٧] .

ومن ذلك ما ذكره عن نبي الله داود في الحكم بين الخصم إذ تسوروا المحراب فقال ربنا فيه : ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ [ص: ٢٤ ـ ٢٥] .

وقد دعا سيدنا إبراهيم ربه ليغفر له خطيئته يوم الدين ولم نعلم أن له

---

(١) انظر فتح القدير ١/ ٤٧٣ وما بعدها ، روح المعاني ٥/ ١٤٠ .

خطيئة ، فقد قال سبحانه على لسان سيدنا إبراهيم : ﴿ وَٱلَّذِىٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشعراء : ٨٢] .

وقد سأل موسى ربه أن يغفر له ولأخيه بعد اتخاذ قومه العجل إلها حين أضلهم السامري فقال : ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِى وَلِأَخِى وَأَدۡخِلۡنَا فِى رَحۡمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأعراف : ١٥١] .

كما دعا ربه أيضًا بالمغفرة بعدما أخذتهم الرجفة حينما ذهبوا لميقات ربهم فقال : ﴿ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف : ١٥٥] .

وقد يدعو الرسول بالمغفرة له وللمؤمنين طلبًا لمرضاة الله واستزادة من الخير ، وليس لأمر أحدثوه يقتضي طلب المغفرة ، وذلك نحو ما دعا سيدنا نوح له ولوالديه وللمؤمنين والمؤمنات قائلاً : ﴿ رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِىَ مُؤۡمِنًا وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارَۢا﴾ [نوح : ٢٨] .

وكما دعا سيدنا إبراهيم قائلاً : ﴿ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ﴾ [إبراهيم : ٤١] .

ثم إن الاستغفار قد يكون لجلب الخير ودفع الشر وللمتاع الحسن في الدنيا كما هو في الآخرة. والإكثار منه يزيد في الخير ويدفع الشر ، كما قال سبحانه : ﴿ وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِى فَضۡلٍ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ كَبِيرٍ﴾ [هود : ٣] وذلك ما قاله سبحانه لنبيه عليه السلام وأمره بتبليغه .

وكما قال سبحانه على لسان سيدنا نوح : ﴿ فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٍ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرًا﴾ [نوح : ١٠ ـ ١٢] .

وكما قال على لسان نبي الله هود إلى قومه : ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ

ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ٥٢] .

وأما الاستغفار من الذنب فهو سبيل من سبل النجاة ، والمذنب ينبغي أن يستغفر ربه ﴿ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥] .

وأما قوله سبحانه لرسوله: ﴿ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾ فالذي يترجح في الظن أنه من باب هضم النفس وأنه تعليم لعباده ، فإنه إذا كان الرسول مأمورًا بالاستغفار من الذنب مع أنه لم يذنب ، فكيف حال غيره ممن غرق بالذنوب وأحاطت به الخطايا؟!

وقد تقول: لقد قال في هذه الآية: ﴿ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ فذكر معه المؤمنين والمؤمنات .

وقال في غافر: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴾ [غافر: ٥٥] فلم يذكر معه المؤمنين والمؤمنات ، فما الفرق؟

والجواب أنه في سياق آية محمد ذكر المؤمنين ممن قتل في سبيل الله ، وذكر الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأنه يدخلهم الجنة ، وذكر الذين أوتوا العلم من أصحاب رسول الله ، وذكر الذين اهتدوا وزادهم هدى وآتاهم تقواهم .

فطلب منه الاستغفار للذين آمنوا .

وأما في آية غافر فلم يذكر معه أحدًا من المؤمنين ، وإنما ذكر موسى وفرعون وصبر موسى على أذى فرعون ، وذكر الذين يتحاجون في النار من الذين جاءتهم رسلهم بالبينات .

وقال قبل الآية: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ (٥٣) هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [غافر: ٥٣ ـ ٥٤] .

وذكر بعد الآية الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان آتاهم.

ولم يذكر غير الرسول من المسلمين في السياق.

فقال لرسوله: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ أي: اصبر على ما يصيبك من الأذى وعلى التبليغ كما صبر من قبلك من الرسل. وقد قال له في آية أخرى: ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وطلب منه الاستغفار والتسبيح بالعشي والإبكار. ومداومة التسبيح مدعاة إلى النجاة ودفع السوء، كما قال سبحانه في يونس عليه السلام: ﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [الصافات: ١٤٣ ـ ١٤٤].

فكان كل تعبير مناسبًا لسياقه الذي ورد فيه.

﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴾.

أي: «والله يعلم أحوالكم ومتصرفاتكم ومتقلبكم في معايشكم ومتاجركم ويعلم حيث تستقرون في منازلكم أو متقلبكم في حياتكم ومثواكم في القبور، أو متقلبكم في أعمالكم ومثواكم من الجنة والنار»[1].

وذكرُ هذا بعد الاستغفار في غاية المناسبة، ذلك أن الاستغفار ـ كما ذكرنا ـ من أسباب جلب الخير ودفع السوء في الدنيا والآخرة في تقلبهم ومثواهم في بيوتهم أو في القبور. فناسب ذكره بعد الأمر بالاستغفار والله أعلم.

* * *

(١) الكشاف ٣/ ١٣١.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ۝٢٠ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [محمد: ٢٠ ـ ٢١] .

* * *

«كان المؤمنون حريصين على ظهور الإسلام وعلوّ كلمته وتمني قتل العدو ، وكانوا يستأنسون بالوحي ويستوحشون إذا أبطأ ، والله تعالى قد جعل ذلك بابًا ومضروبة لا يتعدى ، فمدح تعالى المؤمنين بطلبهم إنزال سورة ، والمعنى تتضمن أمرنا بمجاهدة العدو وفضح أمر المنافقين»[١] .

والمراد بقوله : ﴿لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ أي : «سورة فيها تكليف بمحن المؤمن والمنافق»[٢] .

قوله : ﴿وَيَقُولُ﴾ بالفعل المضارع للدلالة على أنهم قالوه أكثر من مرة ولا يزالون يقولون ذلك إظهارًا لشدة رغبتهم في تنزيل السورة .

وجاء بـ (لولا) التي تدل على الطلب الشديد والتمني لذلك .

وقالوا (نُزِّلَتْ) بالفعل المضعف ، ولم يقولوا (أُنزلت) للدلالة على الاهتمام والتوكيد ، فإن من معاني هذا الفعل المضعف إفادة التوكيد[٣] .

ويدل على ذلك الاستعمال القرآني في نحو هذا الاستعمال . فقد قال تعالى : ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٣٧] فقال (نُزِّلَ) بالتضعيف .

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٨١ .

(٢) تفسير الرازي ١٠/ ٥٣ .

(٣) انظر ملاك التأويل ١/ ٣٢١ وانظر كتابنا (بلاغة الكلمة في التعبير القرآني) ص٦٧ وما بعدها .

وقال في موطن آخر: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ [يونس: ٢٠] فقال (أُنزِلَ).

ومن النظر في الموضعين يتضح الفرق بينهما.

فقد قال في سياق آية الأنعام: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٥].

فانظر إلى قوله سبحانه: ﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ﴾ والدلالة على شدة اهتمام الرسول بالإتيان بآية تدعوهم إلى الهدى، والدلالة على شدة إعراضهم.

وليس السياق في سورة يونس كذلك، فقد قال قبل الآية: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُواْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [يونس: ١٩].

وبعدها: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ [يونس: ٢١].

فالكلام على الناس عمومًا.

والدلالة على التوكيد في استعمال (نُزِّلَ) في آية الأنعام أظهر من أن يوضح.

وقال في موطن آخر: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ [الرعد: ٢٧].

فقال (أُنزِل) ولم يقل (نُزِّل).

والسياق يدل على الاختلاف بين الموضعين في آية الأنعام وآية الرعد هذه.

فقد قال قبل الآية في سورة الرعد: ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ﴾ [الرعد: ٢٦].

وقال بعدها: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ﴾ [الرعد: ٢٨ ـ ٢٩].

والفرق ظاهر بين الموطنين.

فدلّ الفعل المضعف على الاهتمام والتوكيد، وذلك مما يدل على شدة اهتمام الذين آمنوا بتنزيل سورة.

وقد ذكر صاحب ملاك التأويل تعليلاً آخر في استعمال الفعلين (نُزّلت) و(أُنزلت) في آية محمد فقال: «قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞ﴾ ثم قال: ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ﴾.

فورد الفعل أولاً مضعفًا، وثانيًا غير مضعف.

ووجه ذلك ـ والله أعلم ـ أن المؤمنين هم الذين يودون نزول السورة، وطلبهم نزولها إنما هو على ما اعتادوه جاريًا في غيرها من التنجيم وتفصيل المنزَّل. فالملائم هنا عبارة التضعيف.

وقوله: ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ﴾ إنما المراد تحصيلها بجملتها بعد كمال. وذلك مفهوم من سياق الكلام، والملائم لما تحصّل عبارة الإنزال من غير تضعيف.

فكل من الموضعين وارد على أنسب نظم، والعكس غير ملائم والله أعلم»[1].

---

(١) ملاك التأويل ٢/ ٨٥٧.

وقوله: ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ﴾ أي «مبينة غير متشابهة لا تحتمل وجهًا إلا وجوب القتال»[١].

﴿رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي نفاق أو ضعف في الدين[٢].

وفي (الكشاف) «هم الذين كانوا على حرف غير ثابتي الأقدام كانوا يدّعون الحرص على الجهاد ويتمنونه بألسنتهم»[٣].

﴿يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ﴾.

«أي تشخص أبصارهم جبنًا وهلعًا وغيظًا كما ينظر من أصابته الغشية عند الموت»[٤].

﴿فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ ۝٢٠ طَاعَةٞ وَقَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞۚ﴾.

﴿فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾.

عبارة تدل على الزجر والتهديد. تقول لمن تتوعده وتتهدده (أولى لك يافلان) أي ويل لك، واشتقاقها من الولْي وهو القرب. وهو اسم تفضيل يفيد قرب وقوع الهلاك.

وهو دعاء عليهم بقرب الهلاك، بمعنى: أهلكهم الله تعالى هلاكًا أقرب لهم من كل شر وهلاك[٥].

جاء في (الكشاف): «﴿فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾ وعيد بمعنى: فويل لهم، وهو أفعل من الولْي وهو القرب. ومعناه الدعاء عليهم بأن يليهم المكروه»[٦].

---

(١) الكشاف ٣/ ١٣١.
(٢) روح المعاني ٢٦/ ٦٧.
(٣) الكشاف ٣/ ١٣١.
(٤) الكشاف ٣/ ١٣١.
(٥) انظر روح المعاني ٢٩/ ٤٩.
(٦) الكشاف ٣/ ١٣١.

وهذا الدعاء عليهم أنسب شيء في هذا المقام وذلك أنه سبحانه قال فيهم: ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ فكأن الموت قريب منهم جدًّا، فدعا عليهم بقرب الهلاك، بل بما هو أقرب لهم من كل شر وهلاك.

لقد ورد نحو هذا التعبير في سورة القيامة، وذلك قوله سبحانه: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ﴾، وقد كرر التعبير في السورة ولم يكرره هنا، وقد ذكرنا ذلك وبيّنا مناسبة كل تعبير للموطن الذي ورد فيه في تفسيرنا لسورة القيامة[1] فلا نعيد القول فيه.

﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾.

الأكثرون على أن هذا التعبير مستقل عما قبله، وهو على تقدير أن (طاعة) خبر لمبتدأ محذوف، وتقديره (أمرنا طاعة وقول معروف) أو نحو ذلك. أو على أنه مبتدأ والخبر محذوف، وتقديره (طاعة وقول معروف خير لهم) أو نحو ذلك. أو على أنه مبتدأ والخبر محذوف وتقديره (طاعة وقول معروف خير لهم) أو (أمثل).

فيكون قوله: ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ تعبيرًا مستقلاً على معنى (ويل لهم) كما بينا.

وقوله: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ تعبيرًا آخر مستقلاً.

جاء في (الكشاف): «﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ كلام مستأنف، أي طاعة وقول معروف خير لهم»[2].

---

(١) انظر كتابنا (لمسات بيانية) ـ تفسير سورة القيامة ٢١١ ومابعدها.
(٢) الكشاف ٣/ ١٣١.

وجوز بعضهم أن يكون قوله: ﴿ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ۝٢٠ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ﴾ كله جملة واحدة متألفة من مبتدأ وخبر على أن (أولى) مبتدأ، و(لهم) جار ومجرور متعلق به، و(طاعة) خبر المبتدأ على معنى: (أجدر بهم طاعة وقول معروف) و(أحرى بهم طاعة وقول معروف).

جاء في (البحر المحيط): «وقيل (أولى) مبتدأ، و(لهم) من صلته، و(طاعة) خبر... والأكثرون على أن ﴿ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ﴾ كلام مستقل محذوف أحد الجزأين إما الخبر وتقديره أمثل... وإما المبتدأ وتقديره: الأمر أو أمرنا طاعة»[1].

والمعنيان محتملان:

فإنه قد يكون التعبير على أن ﴿ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾ كلام مستقل، على معنى الدعاء عليهم بقرب الهلاك.

أو على معنى أن الطاعة والقول المعروف أجدر بهم وأحرى بهم.

وقد يكون كلاهما مرادًا والله أعلم.

لقد ذكر أمرين في قوله سبحانه: ﴿ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ﴾ أحدهما: يتعلق بالعمل وهو قوله (طاعة). والآخر بالقول وهو قوله (قول معروف).

وفي ذلك الخير كله: الطاعة لله ورسوله، والقول المعروف.

﴿ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ ﴾.

أي جدّ، والعزم الجد.

والأصل أن يسند العزم لصاحب الأمر، كما قال تعالى: ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقال: ﴿ وَإِنْ عَزَمُوا۟

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٨١.

ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٧].

وقد يسند إلى الأمر من باب الاستعارة كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧].

جاء في (الكشاف): «﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي جدّ، والعزم والجد لأصحاب الأمر، وإنما يسندان إلى الأمر إسنادًا مجازيًا، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾»[1].

﴿فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾.

أي «فلو صدقوا الله فيما زعموا من الحرص على الجهاد، أو فلو صدقوا في إيمانهم وواطأت قلوبهم فيه ألسنتهم»[2] لكان ذلك خيرًا لهم.

والصدق يكون في القول والعمل، قال تعالى: ﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

فذكر أعمالاً منها إيتاء المال على حب الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والصبر في البأساء والضراء.

وهذه صدق في العمل.

وذكر الوفاء بالعهد، وهو صدق في القول.

---

(١) الكشاف ٣/ ١٣١ وانظر البحر المحيط ٨/ ٨٢.

(٢) الكشاف ٣/ ١٣١.

وقد قال عن أصحاب هذه الصفات: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾.

فالصدق يكون في القول والعمل، وهو المناسب للقول والعمل في قوله: ﴿ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌۚ﴾.

* * *

﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ [محمد: ٢٢ ـ ٢٣].

* * *

التفت من الغيبة إلى الخطاب فقد قال قبلها: ﴿فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾

ثم خاطبهم بقوله: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ . . . ﴾ وذلك لتوبيخهم، فإن توبيخ المخاطب أشد من توبيخ الغائب.

جاء في (البحر المحيط): «﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ﴾ التفات للذين في قلوبهم مرض، أقبل بالخطاب عليهم على سبيل التوبيخ، وتوقيفهم على سوء مرتكبهم» (١).

و(عسى) من أفعال الرجاء، أي: لعل ذلك يحصل منكم، أي متوقع أن يحصل ذلك منكم. وهذا التوقع ليس منسوبًا إليه تعالى، فإنه عالم بهم وبأعمالهم، وإنما التوقع يكون ممن عرف حالهم.

جاء في (البحر المحيط): «فالآيات كلها في المنافقين. . . وهذا التوقع الذي في (عسى) ليس منسوبًا إليه تعالى؛ لأنه عالم بما كان

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٨٢.

وما يكون ، وإنما هو بالنسبة لمن عرف المنافقين»[(١)] .

وقوله : ﴿إِن تَوَلَّيۡتُمۡ﴾ يحتمل معنيين :

الأول: إن توليتم أمر الناس فأصبحتم أمراء عليهم أفسدتم في الأرض وقطعتم الأرحام.

والمعنى الآخر: إن أعرضتم ونكلتم عن الجهاد عدتم إلى ما كنتم عليه في الجاهلية من الإفساد في الأرض وسفك الدماء وقطع الأرحام.

جاء في (الكشاف) : أي «يا هؤلاء ما ترون؟ هل يتوقع منكم إن توليتم أمور الناس وتأمرتم عليهم لما تبين منكم من الشواهد ولاح من المخايل (أن تفسدوا في الأرض) . . .

وقيل : إن أعرضتم وتوليتم عن دين رسول الله ﷺ وسنته أن ترجعوا إلى ما كنتم عليه في الجاهلية من الإفساد في الأرض بالتغاور والتناهب وقطع الأرحام بمقاتلة بعض الأقارب بعضًا ووأد البنات»[(٢)] .

وجاء في (تفسير ابن كثير) : «﴿فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ﴾ أي عن الجهاد ونكلتم عنه .

﴿أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ . . .﴾ أي تعودوا إلى ما كنتم فيه من الجاهلية الجهلاء تسفكون الدماء وتقطعون الأرحام»[(٣)] .

وكلاهما محتمل .

وقال : ﴿وَتُقَطِّعُوٓاْ﴾ بتضعيف العين للدلالة على كثرة التقطيع .

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٨٢ .

(٢) الكشاف ٣/ ١٣٢ .

(٣) تفسير ابن كثير ٤/ ١٧٨ .

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴾ .

﴿ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ أي طردهم وأبعدهم من رحمته ، فإن اللعنة هي الطرد والإبعاد[(١)] .

﴿ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴾ .

أي : «فأصمهم عن سماع الموعظة وأعمى أبصارهم عن طريق الهدى» [(٢)] .

لقد قال : (فأصمهم) ولم يقل : (فأصم آذانهم) .

وقال : ﴿ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴾ ولم يقل : (وأعماهم) .

قيل : «وذلك لأن العين آلة الرؤية ولو أصابها آفة لا يحصل الإبصار ، والأذن لو أصابها آفة من قطع أو قلع تسمع الكلام . . .

فقال : (أصمهم) من غير ذكر الأذن ، وقال : (أعمى أبصارهم) مع ذكر العين ؛ لأن البصر هنا بمعنى العين ، ولهذا جمعه بالأبصار ، ولو كان مصدرًا لما جمع .

فلم يذكر الأذن ، إذ لا مدخل لها في الإصمام . والعين لها مدخل في الرؤية ، بل هي الكل . ويدل عليه أن الآفة في غير هذه المواضع لما أضافها إلى الأذن سماها وقرًا كما قال تعالى : ﴿وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ﴾ ، وقال : ﴿كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ والوقر دون الصمم» [(٣)] .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أنه قال : ﴿ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴾ فذكر الأبصار ليشمل عمى العين والبصيرة . فإن البصر هو العين ، وهو أيضًا النفاذ في القلب والعلم ، وبصر القلب نظره ، وهو البصيرة أيضًا[(٤)] . قال

---

(١) لسان العرب (لعن) .
(٢) البحر المحيط ٨/ ٨٢ .
(٣) تفسير الرازي ١٠/ ٥٥ وانظر البحر المحيط ٨/ ٨٢ ، روح المعاني ٢٦/ ٦٩ .
(٤) انظر لسان العرب (بصر) ، تاج العروس (بصر) .

تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [آل عمران: ١٣] «أي لأولي العقول، كما يقال: لفلان بصر بهذا الأمر، أي: علم ومعرفة»[1] والله أعلم.

وقال: ﴿فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾ فقدم الصمم على العمى؛ ذلك لأنه قال: ﴿فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ﴾ وهذا متعلق بالسمع، فقدم ما يتعلق بالسمع فقال: ﴿فَأَصَمَّهُمْ﴾.

ثم قال: ﴿رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ وهذا متعلق بالإبصار. فذكر ما يتعلق بالبصر فقال: ﴿وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾.

فكان التقديم والتأخير مناسبًا للسياق.

ومن الملاحظ في سياق هذه الآيات تقديم الأعم على الأخص.

فقد قال: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ والطاعة أعم من القول، فإن القول قد يكون من الطاعة، والطاعة تكون في عمل أو قول.

وقال: ﴿أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ والإفساد في الأرض أعم من تقطيع الأرحام.

وقال: ﴿لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾ واللعنة أعم مما بعدها، فالإصمام وإعماء الأبصار قد يكونان من اللعنة.

وحتى أن في قوله: ﴿فَأَصَمَّهُمْ﴾ و﴿وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾ عمومًا وخصوصًا إضافة إلى ما ذكر.

فإنه قال (أصمهم) فكان المفعول به عامًّا.

---

(١) تفسير الرازي ٣/ ١٥٩.

ثم قال: ﴿وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ فجعل العمى للبصر وهو جزء من الشخص ولم يقل (فأعماهم).

فذكر الخصوص بعد العموم.

* * *

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤].

* * *

لقد قال في هذه الآية: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ فقال (يتدبرون)، وقال في موضع آخر: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، وقال أيضًا: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص: ٢٩] فقال (ليدّبرّوا) بالإبدال والإدغام.

وقد ذكرنا في كتابنا (بلاغة الكلمة في التعبير القرآني) استعمال هذين الفعلين في القرآن وبيان شيء من الناحية البيانية فيهما[١] فلا نعيد القول في ذلك.

ونود أن نذكر هنا شيئًا مما ذكرناه هناك، وهو أنه قال في آية محمد: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ فذكر القرآن.

وذكر في آية «ص» تدبر الآيات.

فجاء بالفعل الأطول لما هو أكثر.

﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾.

ذهب قسم من المفسرين إلى أن (أم) منقطعة، وهي بمعنى (بل

---

(١) بلاغة الكلمة في التعبير القرآني ٤٩ ومابعدها.

وهمزة التقرير) فيكون المعنى: أفلا يتدبرون القرآن بل أهي مقفلة ؟

جاء في (الكشاف): «أم بمعنى بل وهمزة التقرير للتسجيل عليهم بأن قلوبهم مقفلة لا يتوصل إليها ذكر»[١].

وذهب آخرون إلى أنها متصلة فيكون المعنى: أفلا يتدبرون القرآن أم قلوبهم مقفلة؟ أي: أيّ شيء من هذين الأمرين حاصل؟

جاء في (روح المعاني): «﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ تمثيل لعدم وصول الذكر إليها وانكشاف الأمر لها، فكأنه قيل: أفلا يتدبرون القرآن إذ وصل إلى قلوبهم أم لم يصل إليها؟ فتكون (أم) متصلة على مذهب سيبويه...

وذهب أبو حيان وجماعة إلى أنها منقطعة وما فيها من معنى (بل) للانتقال من التوبيخ بترك التدبر إلى التوبيخ بكون قلوبهم مقفلة لا تقبل التدبر والتفكر. والهمزة للتقرير»[٢].

ونكّر القلوب وأضاف الأقفال إليها.

ومما قيل في تنكير القلوب أنه لا يراد بها قلوب معينة، بل هي تشمل كل قلب بهذه الصفة. ولو عرّفها لكانت تشمل قلوبًا معينة.

جاء في (التفسير القيم): «وتأمل تنكير القلوب وتعريف الأقفال بالإضافة إلى ضمير القلوب، فإن تنكير القلوب يتضمن إرادة قلوب هؤلاء وقلوب من هم بهذه الصفة.

ولو قال (أم على القلوب أقفالها) لم تدخل قلوب غيرهم في الجملة»[٣].

---

(١) الكشاف ٣/ ١٣.

(٢) روح المعاني ٢٦/ ٧٤ وانظر البحر المحيط ٨/ ٨٣.

(٣) التفسير القيم ٤٣٩.

وجاء في (الكشاف): «وأما إضافة الأقفال إليها فلأنه يريد الأقفال المختصة بها وهي أقفال الكفر التي استغلقت فلا تنفتح»[١].

وهذا أشد شيء في وصف القلوب بالانغلاق عن وصول التبليغ إليها.

جاء في (لسان العرب): «قال مجاهد: الرَّيْن أيسر من الطبع، والطبع أيسر من الإقفال، والإقفال أشد من ذلك كله»[٢].

* * *

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى ٱلشَّيۡطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمۡ وَأَمۡلَىٰ لَهُمۡ﴾ [محمد: ٢٥].

* * *

﴿ٱرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم﴾.

«أي رجعوا إلى ما كانوا عليه من الكفر. قال ابن عباس وغيره: نزلت في منافقين كانوا أسلموا ثم نافقت قلوبهم»[٣].

﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمۡ﴾.

أي زيّن لهم ذلك. و«التسويل تزيين النفس لما تحرص عليه وتصوير القبيح منه بصورة الحسن»[٤] «وسوّل له الشيطان: أغواه»[٥].

وفي (الكشاف): «سهّل لكم ركوب العظائم»[٦].

---

(١) الكشاف ٣/ ١٣٢.
(٢) لسان العرب (طبع).
(٣) روح المعاني ٢٦/ ٧٤.
(٤) مفردات الراغب (سول).
(٥) لسان العرب (سول).
(٦) الكشاف ٣/ ١٣٢.

ولم يرد التسويل في القرآن إلا في السوء، بخلاف التزيين فإنه عام في الحسن والسوء.

قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾ [الحجرات: ٧]، وقال: ﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ﴾ [ق: ٦]، وقال: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ [فصلت: ١٢].

وقال في السوء: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٣]، وقال: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

و﴿وَأَمۡلَىٰ لَهُمۡ﴾.

أي «مدّ لهم في الآمال والأماني» [١] وغرهم وخدعهم [٢].

* * *

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمۡ فِي بَعۡضِ ٱلۡأَمۡرِۖ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِسۡرَارَهُمۡ﴾ [محمد: ٢٦].

* * *

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ﴾.

أي إن ارتدادهم إنما هو بسبب قولهم للذين كرهوا ما نزل الله من اليهود أو من غيرهم سنطيعكم في بعض الأمر.

فإطاعتهم للذين كرهوا القرآن في بعض الأمر الذي فيه أذى للمسلمين وإعانة للكافرين على المسلمين كان سببًا لردتهم.

---

(١) الكشاف ٣/ ١٣٢.

(٢) تفسير ابن كثير ٤/ ١٨٠.

جاء في (روح المعاني): «(ذلك) إشارة إلى ما ذكر من ارتدادهم... (بأنهم) أي بسبب أنهم (قالوا) يعني المنافقين ﴿لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ﴾ هم بنو قريظة والنضير من اليهود الكارهين لنزول القرآن... ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ﴾ أي في بعض أموركم وأحوالكم وهو ماحكى عنهم في قوله تعالى: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾ [الحشر: ١١]. وقيل في بعض ما تأمرون به»[١].

وقوله: ﴿فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ﴾ أي «في بعض ما تأمرون به، أو في بعض الأمر الذي يهمكم»[٢].

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾.

في (اسرارهم) قراءتان متواترتان:

إحداهما: بكسر الهمزة مصدراً للفعل (أسرّ).

والأخرى: بفتح الهمزة، أي أسرارهم[٣] جمع سِرّ.

فقوله: ﴿يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ أي يعلم إخفاءهم الأشياء، سواء أسرّوه في أنفسهم أم أسرّوه إلى إخوانهم الذين كفروا.

جاء في (النكت والعيون): «﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ يحتمل وجهين:

أحدهما: ما أسر بعضهم إلى بعض من هذا القول.

الثاني: ما أسروه في أنفسهم من هذا الاعتقاد»[٤].

---

(١) روح المعاني ٢٦/ ٧٥، وانظر تفسير أبي السعود ٦/ ١٥٩.
(٢) الكشاف ٣/ ١٣٢.
(٣) انظر النشر في القراءات العشر ٢/ ٣٧٤.
(٤) النكت والعيون ٤/ ١٣٤.

وقوله: ﴿يَعۡلَمُ إِسۡرَارَهُمۡ﴾ أي يعلم الأشياء التي يخفونها.

فالقراءتان جمعتا المصدر والذات كالإدبار والأدبار، والإنباء (مصدر أنبأ) والأنباء (جمع نبأ)، والإبصار (مصدر أبصر)، والأبصار (جمع بصر)، والإقفال (مصدر أقفل الباب) والأقفال (جمع قفل).

جاء في (روح المعاني): «﴿إِسۡرَارَهُمۡ﴾ أي إخفاءهم ما يقولونه لليهود أو كل قبيح...

وقرأ الجمهور (أسرارهم) بفتح الهمزة، أي يعلم الأشياء التي يسرونها»[١].

والملاحظ في هذه الآية أنها مبنية على العموم.

وفي آية الحشر التي مر ذكرها، وهي قوله: ﴿۞أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخۡوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَئِنۡ أُخۡرِجۡتُمۡ لَنَخۡرُجَنَّ مَعَكُمۡ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمۡ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلۡتُمۡ لَنَنصُرَنَّكُمۡ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الحشر: ١١] أنها مبنية على التخصيص والتبيين.

فقد قال في سياق آية محمد: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم...﴾.

وقال في آية الحشر: ﴿۞أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ﴾ فذكر الذين نافقوا فخصّص وبيّن.

وما في آية محمد أعم.

وقال في آية محمد: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ﴾ فلم يصرح بذكرهم، فلم يذكر من هم الذين كرهوا ما نزل الله.

وقال في آية الحشر: ﴿يَقُولُونَ لِإِخۡوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ فذكر أنهم يقولون للذين كفروا من أهل الكتاب.

---

(١) روح المعاني ٢٦/ ٧٥.

وقال في آية محمد: ﴿ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ﴾ ولم يذكر ما هو الأمر.

وذكر الأمر في آية الحشر وهو قوله: ﴿ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ ﴾ .

وقال في آية محمد: ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴾ فذكر ربنا أنه يعلم إسرارهم ولم يذكر ما هو، ولا أهو صدق أم كذب.

وقال في آية الحشر: ﴿ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾ [الحشر: ١١ ـ ١٢] فبين ربنا كذب ما أسروه لهم وفضح أسرارهم في هذا الأمر.

ومن لطيف مراعاة المقام أنه لما ذكر في آية محمد أنه إذا ذكر القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت وذلك خشية القتال لم يقل (وإن قوتلتم لننصرنكم) كما قال في آية الحشر التي لم يرد فيها نحو ذلك، بل إنهم أظهروا الشجاعة في موالاتهم لأهل الكتاب فقالوا لهم: ﴿ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ ﴾ .

وأنهم قالوا في آية محمد: ﴿ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ﴾ وليس كله.

في حين قالوا في آية الحشر: ﴿ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا ﴾ .

مناسبة للمقام في كل منهما.

ففي مقام الخوف ذكروا الطاعة في بعض الأمر ولم يذكروا ما هو هذا البعض.

وفي مقام ادعاء الشجاعة قالوا: ﴿وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا﴾ .

وهذا من لطيف مراعاة المقام.

والملاحظ أنه لم يذكر (المنافقين) باسمهم في سورة محمد بل ذكر صفاتهم على العموم باسم (الذين كفروا) الذين هم منهم.

بخلاف آية الحشر فإنه صرح باسمهم وأحوالهم.

فالسياق في آية محمد مبني على العموم.

وفي آية الحشر مبني على التخصيص والتبيين.

* * *

﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ [محمد: ٢٧] .

* * *

أي فكيف يكون حالهم وماذا يصنعون عند قبض الملائكة أرواحهم وهم يضربون وجوههم وأدبارهم؟

وتقديم ضرب الوجوه على الأدبار مناسب لما تقدم من قوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى ۙ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: ٢٥]. فالارتداد كان بعد تبين الهدى.

وتبين الهدى يكون بالإقبال على الشيء، والإقبال على الشيء يكون بالإقبال بوجهه عليه.

فناسب تقديم ضرب الوجوه لأنها سابقة على الإدبار.

وضرب الأدبار مناسب للارتداد، فإن الارتداد عن الشيء إدبار عنه.

وهو - أي التقديم والتأخير - مناسب أيضًا لما جاء بعدها وهو قوله

سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ﴾ [محمد: ٢٨].

فاتباع ما اسخط الله يعني إقبالهم على سخط الله بوجوههم فقدم ضربها.

وقوله: ﴿وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ﴾ أي أدبروا عنه فناسب ضرب الأدبار.

جاء في (روح المعاني) في قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ﴾: «﴿مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ﴾ من الكفر والمعاصي.

﴿وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ﴾ ما يرضاه عز وجل من الإيمان والطاعات...

ولما كان اتباع ما أسخط الله تعالى مقتضيًا للتوجه ناسب ضرب الوجه، وكراهة رضوانه سبحانه مقتضيًا للإعراض ناسب ضرب الدبر»[1].

* * *

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ [محمد: ٢٨].

* * *

أي ذلك الضرب عند التوفي إنما هو بسبب اتباعهم ما أسخط الله وأنهم كرهوا رضوانه.

وقال: (اتّبعوا) بالتضعيف ولم يقل (تَبِعوا) وذلك للمبالغة في اتباع ما أسخط الله.

ومن الملاحظ أنه سبحانه قال: ﴿ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ

(١) روح المعاني ٢٦/ ٧٦.

رِضۡوَٰنَهُۥ﴾ ولم يقل (اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا ما أرضاه) ذلك أن (ما) اسم موصول ، أي اتبعوا الأعمال التي تسخط الله .

وقال : ﴿وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ﴾ و(الرضوان) مصدر ، ولم يقل (وكرهوا ما أرضى الله) أي لم يقل (كرهوا الأعمال التي ترضي الله) وإنما كرهوا رضوانه .

وهذا أعظم من كراهة الأعمال التي ترضيه وأوسع ، فإن من آثار ذلك كراهة كل الأعمال التي يرضاها سبحانه وعدم فعلها ، إضافة إلى أنهم يكرهون رضاه أصلاً فيتبعون كل ما لا يرضاه سبحانه .

فإنهم لو اتبعوا أمرًا واحدًا مما يسخط الله لصح أن يقال (اتبعوا ما أسخط الله) غير أن كراهة رضوان الله تستدعي كراهة كل شيء وكل الأعمال التي يرضاها ربنا سبحانه ، وهذا أوسع وأعظم في الدلالة على قبحهم وعظيم معصيتهم .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أنه قال : ﴿وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ﴾ ولم يقل (وكرهوا ما يرضيه) ، ذلك أن المهم هو أن يحب العبد ويفعل ابتغاء رضوانه سبحانه وإن كان ما يرضيه صعبًا وشاقًّا وليس محبوبًا عنده. وإيضاح ذلك أن بعض الأعمال التي يأمر بها ربنا ثقيلة وغير محبوبة عند الشخص ولكنه يفعلها ابتغاء رضوانه. ومن ذلك على سبيل المثال أنه سبحانه قال : ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ﴾ [البقرة: ٢١٦] فالقتال كما قال سبحانه كرهٌ لنا وقد أمر به سبحانه. فالمهم أن نفعل ذلك لا لأننا نحبه ولكن لأن الله أمر به مبتغين به رضوان الله. فإننا نحب رضوان الله فنفعل ما يأمر به .

ومن ذلك على سبيل المثال أن الله سبحانه أمر خليله إبراهيم بذبح ولده إسماعيل ، ولا شك أن ذلك ثقيل على سيدنا إبراهيم غير محبوب

لا عنده ولا عند ولده ، ولكنه فعل ذلك ابتغاء رضوان الله ومحبة لرضوان الله وإن كان ما يرضيه ثقيلاً وشاقًا ليس محبوبًا عنده.

وقديمًا قال الشاعر في محبوبه:

لو قال تيهًا قف على جمر الغضا   لوقفت ممتثلاً ولم أتوقف

ولا شك أن الوقوف على جمر الغضا شاق ومكروه ولكنه يفعله امتثالاً لأمر محبوبه ، فكيف بالعبد في إطاعة أمر خالقه ومحبوبه!!

ومن ذلك ما أمر به سيدنا موسى قومه بعد اتخاذهم العجل أن يقتلوا أنفسهم باتخاذهم العجل توبة إلى الله كما أخبر سبحانه بقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٥٤] فالتوبة من عبادة العجل هي قتل النفس وقد ذكرت صور لهذا القتل[1].

وهذا ما يرضي الله.

ولا شك أن هذا ثقيل وغير محبوب ولكنهم فعلوا ذلك حبًا لرضوان الله وابتغاء رضوانه.

وقال سبحانه: ﴿۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

ولا شك أن هذا الابتلاء ثقيل وشاق وغير محبوب ولذا قال سبحانه ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾.

---

(١) انظر تفسير فتح القدير ١/ ٧١.

وقال سبحانه: ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴾ [العنكبوت: ٢ ـ ٣].

ولا شك أن المقصود بالذين صدقوا أنهم الذين يصبرون على الفتنة ويتقون ربهم، كما لا شك أن هذه من المكاره، فإن الفتنة ثقيلة وغير محبوبة، وقد أمر ﷺ بالتعوذ من الفتن فقال: (تعوذوا بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن)[1].

وقد قال ﷺ: (حُفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات)[2].

فمن رحمته سبحانه أنه لم يقل (وكرهوا ما يرضيه) وإلا لكان دخل في هذا خلق كثير من المؤمنين، فالمهم أن يحبوا رضوانه ويبتغوا رضوانه سواء كان الذي يريده الله ثقيلاً أم محبوبًا.

فليس المهم أن تحب العمل ولكن المهم أن تعمل ابتغاء رضوان الله وأن تحب رضوانه.

وقيل في هذا التعبير شيء آخر، ذلك أنه قال: ﴿ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ ﴾ فجاء بالسخط بالفعل وبالرضوان بالاسم. والاسم أثبت من الفعل وأدوم، فالأصل هو الرضوان، والسخط عارض لسبب، وأن الرضوان من رحمته سبحانه، وإن رحمته سبقت غضبه وقد وسعت كل شيء، بخلاف السخط فإنه إنما يكون لسبب يغضبه سبحانه، فالأصل هو رضوانه سبحانه وهو سابق. فهؤلاء اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه ففعلوا ما يبعد رضا الله عنهم.

---

(١) انظر صحيح مسلم (باب في عذاب القبر والتعوذ منه) مختصر صحيح مسلم رقم الحديث ٤٩٣.

(٢) مختصر صحيح مسلم للحافظ المنذري رقم الحديث ١٩٦٩ ص٢٨٢.

ولو قال (وكرهوا ما يرضي الله) لدل على أن الرضا غير موجود فكرهوا ما يوجده ويستدعيه من الأفعال.

كما أنه لو قال (اتبعوا سخط الله) لدل على أن السخط موجود وهو من صفاته الثابتة وقد اتبعوا هذا السخط.

فالتعبير يدل على عظيم رحمته سبحانه بعباده.

جاء في (تفسير الرازي): «وفيه لطيفة وهي أن الله تعالى قال: (ما أسخط الله) ولم يقل (ما أرضى الله) وذلك لأن رحمة الله سابقة، فله رحمة ثابتة وهي منشأ الرضوان، وغضب الله متأخر فهو يكون على ذنب.

فقال (رضوانه) لأنه وصف ثابت لله سابق ولم يقل (سخط الله) بل (ما أسخط الله) إشارة إلى أن السخط ليس ثبوته كثبوت الرضوان...

ورضوان الله أمر يكون منه الفعل. وغضب الله أمر يكون من فعله»[1].

* * *

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَـٰنَهُمْ﴾ [محمد: ٢٩].

* * *

الضغن: الحقد والبغضاء والعداوة[2].

بعد أن ذكر الله سبحانه أنه يعلم إسرارهم وإخفاءهم وما تنطوي عليه قلوبهم قال في هذه الآية: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ...﴾

و(أم) هذه هي المنقطعة بمعنى (بل) والهمزة.

(١) تفسير الرازي ١٠/٥٨.
(٢) لسان العرب (ضغن).

والمعنى: بل أحسب الذين في قلوبهم مرض؟

و(أن) هي المخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن محذوف.

جاء في (تفسير أبي السعود) في تفسير هذه الآية: «أي بل أحسب الذين في قلوبهم حقد وعداوة للمؤمنين أن لن يخرج الله أحقادهم ولن يبرزها لرسوله ﷺ وللمؤمنين فتبقى أمورهم مستورة»[١].

ومفهوم الآية أن ربنا سيبطل حسبانهم وأن كل ما أخفوه أو يخفونه في المستقبل سيخرجه ربنا ويفضحهم.

* * *

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٠].

* * *

أي: لو نشاء «لعرّفناكهم ودللناك عليهم حتى تعرفهم بأعيانهم لا يخفون عليك.

(بسيماهم) بعلامتهم، وهو أن يسمهم الله تعالى بعلامة يُعلمون بها»[٢].

ثم أكد أنه ﷺ سيعرفهم في (لحن القول) «أي في الوجه الخفي من القول الذي يفهمه النبي عليه السلام ولا يفهمه غيره»[٣].

فدل ذلك على أنه سبحانه سيعرّف رسوله مرضى القلوب بأعيانهم ويظهر له بواطنهم فلا يبقى منهم مستور، وتلك أقبح فضيحة وأذلها لهم.

---

(١) تفسير أبي السعود ٦/ ١٦١.

(٢) الكشاف ٣/ ١٣٣.

(٣) تفسير الرازي ١٠/ ٥٩.

ثم قال: ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴾ بضمير المخاطبين ولم يقل (والله يعلم أعمالهم) ؛ لأن الخطاب عام لجميع المكلفين ، أو لأن ذلك لغرض الانتقال لخطاب المؤمنين في الآية بعدها وهي قوله: ﴿ وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ ﴾ .

جاء في (البحر المحيط): «والله يعلم أعمالكم خطاب عام يشمل المؤمن والكافر . وقيل خطاب للمؤمنين فقط» [١] .

* * *

﴿ وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ ﴾ [محمد: ٣١] .

* * *

السياق في الجهاد والقتال ولذا كان الابتلاء والاختبار فيما ذكر من أمر المجاهدين والصابرين ، بل إن السورة ذكر فيها ما يتعلق بالقتال في عدة مواطن حتى أن السورة تسمى سورة القتال أيضًا .

فقد قال سبحانه في أوائل السورة: ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ . . . ﴾ [محمد: ٤] .

وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴾ [محمد: ٧] .

وقال: ﴿ فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ ﴾ [محمد: ٢٠] .

وقال بعد الآية: ﴿ فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ ﴾ [محمد: ٣٥] .

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٨٥ .

فناسب ذكر الابتلاء لمعرفة المجاهدين والصابرين.

والابتلاء إنما يذكر نوعه بحسب السياق. من ذلك مثلاً أن الله سبحانه قال في سورة المائدة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾ [المائدة: ٩٤] ذلك أن السياق في الصيد، فقد قال بعد الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ [المائدة: ٩٥].

وقال بعدها: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ [المائدة: ٩٦].

فناسب ذكر الابتلاء بالصيد.

وقال سبحانه في البقرة: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥].

والسياق في المصائب، فقد قال قبل الآية: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٤].

وقال بعدها: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦] فناسب ذكر الابتلاء بما ذكر.

وقال في آل عمران: ﴿۞ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

والسياق في الأموال والأنفس.

فقد قال سبحانه قبل الآية: ﴿مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

وقال أيضًا: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٥] وهذا من الابتلاء بالأنفس.

وقال قبل الآية أيضًا: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ

هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٠].

وهذا من الابتلاء بالمال.

فالابتلاء يذكر نوعه بحسب السياق.

وقد يكون البلاء عامًّا في الخير والشر كما قال سبحانه: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

قد تقول: لقد قال في مواطن عدة (لنبلونكم) و(ليبلونكم) بالتوكيد بنون التوكيد.

وقال سبحانه في آية الأنبياء: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ فلم يؤكد الفعل فلم ذاك؟

والجواب أن الآيات المؤكدة بالنون إنما هي وعد بالابتلاء في المستقبل، فإن نون التوكيد تفيد الاستقبال ولا تكون للحال.

وأما آية الأنبياء فهي عامة وتقع دائمًا، فهي واقعة في الماضي والحال والاستقبال. قال تعالى في الآية: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

فهو بلاء لكل نفس وليس خاصًّا بقوم دون قوم ولا بزمن دون زمن، فجاء بالفعل عامًّا في الحال والاستقبال، فإن الفعل المضارع قد يفيد الاستمرار التجددي كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٥]، وقوله: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، وقوله: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦) تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٢٦ ـ ٢٧].

فناسب كل تعبير موضعه الذي ورد فيه.

﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

أي حتى نعلم هؤلاء علمًا يتعلق به الجزاء وإلا فعلم الله قديم أزلي[١].

﴿وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾.

«ما يحكى عنكم وما يخبر به عن أعمالكم ليعلم حسنها من قبيحها»[٢].

فالآية ذكرت الابتلاء بالأعمال والأقوال.

فقوله: ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ ذكر البلاء بالأعمال.

وقوله: ﴿وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾ ذكر البلاء بالأقوال: ما يخبرون به ويذكرونه وما يخبر عنهم.

جاء في (تفسير أبي السعود): «﴿وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾ ما يخبر عن أعمالكم فيظهر حسنها وقبيحها»[٣]. وهذا ما يخبر عنهم.

وجاء في (روح المعاني): «وجوز كون المراد بها أخبارهم عن إيمانهم وموالاتهم للمؤمنين على أن إضافتها للعهد، أي: ونبلو أخبار إيمانكم وموالاتكم فيظهر صدقها وكذبها»[٤].

وجاء في (أضواء البيان) للشنقيطي: «﴿وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾ فنعرف الصادق منكم من الكاذب»[٥].

---

(١) انظر تفسير أبي السعود ٦/ ١٦٢، المحرر الوجيز لابن عطية ٧/ ٦٥٨.

(٢) الكشاف ٣/ ١٣٣.

(٣) تفسير أبي السعود ٦/ ١٦٢.

(٤) روح المعاني ٢٦/ ٧٨ وانظر تفسير الرازي ١٠/ ٦٠.

(٥) أضواء البيان للشنقيطي ٧/ ٦٢٨.

وهذا ما يخبرون به والله أعلم.

* * *

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـًٔا وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ [محمد: ٣٢].

* * *

قال تعالى في الآية الأولى من السورة: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾.

فقال: ﴿أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ بالفعل الماضي، وذلك لما عملوه في الماضي.

أما في هذه الآية فقد قال: ﴿وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ ليفيد أن ذلك لما يستقبل من أعمالهم.

فدل في الآيتين أنه أضل أعمالهم الماضية وسيحبط أعمالهم المستقبلة.

لقد قال سبحانه: ﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـًٔا﴾ فنفى بـ (لن) التي لنفي المستقبل.

وقال: ﴿وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ بمقابل ذلك، فجاء بالسين التي تفيد الاستقبال.

و(لن) في النفي تقابلها السين أو سوف في الإثبات، فقولنا (لن يفعل) نفي لقولنا (سيفعل) أو (سوف يفعل)[1].

ولما كان الكلام على ما يستقبل من أفعالهم في الكفر والصد عن

---

(١) انظر كتاب سيبويه ١/ ٤٦٠، ١/ ٦٨.

سبيل الله وقد تكون كثيرة ومتنوعة ومتعددة وزاد على كفرهم وصدهم عن سبيل الله مشاقة الرسول أي مخالفته وعداوته أكد ذلك بـ (إنّ) فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ . . . ﴾.

وكان الخبر مؤكد أيضا في النفي والإثبات.

فإن (لن) تفيد توكيد النفي في المستقبل[١]. والسين وسوف تفيدان توكيد حصول الفعل في المستقبل[٢].

فكانت الآية مؤكدة في بدايتها وفي الإخبار في النفي والإثبات وهو ما يقتضيه المقام.

وناسب ذلك التوكيد في هذه الآية وعدم التوكيد في الآية الأولى أعني قوله سبحانه: ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾.

وقوله: ﴿ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ﴾ يعني لن يضروا الله شيئًا من الضرر ولا شيئًا من الأشياء[٣].

﴿ وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ «أي سيبطلها فلا يصلون منها إلى أغراضهم»[٤].

وقد ذكرنا الفرق بين (أضل أعمالهم) و (أحبط أعمالهم) وقد بينا أن (أحبط أعمالهم) أشد فإن معنى (أضل أعمالهم) أضاعها. ومعنى (أحبط أعمالهم) أي أماتها وأهلكها.

لقد قال سبحانه: ﴿ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ﴾ ليدل على أن مشاقة الرسول

---

(١) المفصل ٢/ ٢٠٠، شرح الرضي على الكافية ٢/ ٢٦٠.
(٢) انظر الكشاف: قوله تعالى: ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ [البقرة: ١٣٧] ١/ ٢٤١، وقوله تعالى: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ﴾ [النساء: ١٥٢] ١/ ٤٣٤.
(٣) انظر روح المعاني ٢٦/ ٧٩.
(٤) الكشاف ٣/ ١٣٣.

إنما هي مشاقة لله. وفيه تعظيم لرسوله أي تعظيم.

جاء في (تفسير الرازي): «وقوله: ﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ تهديد معناه هم يظنون أن ذلك الشقاق مع الرسول وهم به يشاقونه، وليس كذلك بل الشقاق مع الله فإن محمدًا رسول الله ما عليه إلا البلاغ»[(١)].

وجاء في (تفسير أبي السعود): «﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ﴾ بكفرهم وصدهم (شيئًا) من الأشياء، أو شيئًا من الضرر، أو لن يضروا رسول الله ﷺ بمشاقته شيئًا. وقد حذف المضاف لتعظيمه وتفظيع مشاقته»[(٢)].

وقال: ﴿وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ فلا يصلون إلى أغراضهم من مشاقة الله ورسوله.

قد تقول: قد يقرن ربنا مشاقة الرسول بمشاقة الله وذلك نحو قوله سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [الأنفال: ١٣]، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۖ﴾ [الحشر: ٤].

وقد يفرد الله بالمشاقة كقوله: ﴿وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [الحشر: ٤].

وقد يفرد الرسول بالمشاقّة كآية محمد هذه وهو قوله: ﴿وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ﴾، وقوله: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ﴾ [النساء: ١١٥].

فلم ذاك؟

فنقول: إن كلّاً بحسب سياقه الذي ورد فيه.

---

(١) تفسير الرازي ١٠/ ٦٠.
(٢) تفسير أبي السعود ٦/ ١٦٢.

فآية الأنفال إنما هي في كفار قريش الذين خرجوا لمحاربة الرسول في بدر ، فهي مشاقّة لله في الشرك به ، ومشاقة لرسوله لمحاربته. والكلام على وقعة بدر. فناسب ذكر مشاقة الرسول مع مشاقة الله.

وأما آية الحشر فهي قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۖ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٤].

فذكر أولاً مشاقة الله ورسوله ثم قال: ﴿وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ﴾ فذكر الله وحده ، ذلك أن الآية في سياق جلاء بني النضير عن المدينة ، وقد توجه إليهم رسول الله بالمؤمنين معه ليجلوهم عن المدينة ، وقد هموا بقتله ﷺ وائتمروا عليه وأجمعوا على الغدر به[1] ، ودسّ إليهم المنافقون أنهم سينصرونهم وأنهم إن أخرجوا فسيخرجون معهم ، كما قال سبحانه في السورة: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الحشر: ١١]. فأمكن الله رسوله منهم وأجلاهم ومكنه الله من أموالهم وديارهم من غير قتال ، كما ذكر سبحانه في قوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا ۖ وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢].

فهم شاقّوا الله ورسوله ، غير أنه لم يحصل بينهم قتال وقذف الله في قلوبهم الرعب. فقال أولاً: ﴿شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ فذكر الرسول لما كان بينهم من المواجهة والمحاورات ومحاولات الغدر به.

---

(١) انظر روح المعاني ٢٨/ ٣٨.

ثم قال: ﴿وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ﴾ ذلك لأنهم خرجوا من غير مواجهة مع الرسول والمؤمنين ولكن الله سبحانه قذف في قلوبهم الرعب.

فالفرق بين آية الحشر وآية الأنفال أن آية الأنفال في معركة بدر وقد حصل القتال بين المسلمين وكفار قريش فقال سبحانه: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في الموضعين.

وأما آية الحشر فكانت المشاقّة لله وللرسول في محاولة الغدر برسول الله وممالأة المنافقين لهم على رسوله فقال أولاً: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ غير أنه لم يحدث بينهما قتال، فاختلف الحال عما في بدر، وانتهت المشاقة مع رسوله في هذا الأمر، وبقيت المشاقّة لله في عدم الإيمان برسوله فقال: ﴿وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ ولم يذكر الرسول.

فكان التعبير مناسبًا لحالة المشاقة في أول الأمر وآخره.

هذا إضافة إلى أن التعبير يعني أن مشاقة الله هي مشاقة لرسوله أيضًا. فمن يشاقّ الله فقد شاقّ رسوله أيضًا.

جاء في (روح المعاني): «والاقتصار على ذكر مشاقته عز وجل لتضمنها مشاقته عليه الصلاة والسلام، وفيه من تهويل أمرها ما فيه» (١).

وأما آية النساء وهي قوله سبحانه: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥] فإنه لم يذكر في الآية مشاقة الله، فإن الأمر مختلف، ذلك أن الآية نزلت في سياق سرقة بعض المنافقين طعامًا وسلاحًا واتهموا رجلاً صالحًا من المسلمين وصدّقهم رسول الله.

فقد قال تعالى في الحادثة: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ

(١) انظر روح المعاني ٢٨/ ٤٢.

غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥ ـ ١٠٧] [١].

فالمسألة ليست في مسألة عقيدة أو حرب بين مسلمين وكافرين، ولكن في مسألة خاصة حكم بها الرسول بحسب ظاهر الأمر فقال سبحانه: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾. فالمسألة خاصة برسول الله ﷺ، فلم يذكر مشاقة الله.

فإنه لما كان السياق في آيتي الأنفال والحشر في المشاقة في العقيدة مع كفار قريش أو مع أهل الكتاب ذكر مشاقة الله.

ولما كانت المشاقة في مسألة أخرى خاصة بحكم الرسول في مسألة ذكر مشاقة الرسول.

والآية تدل أيضًا على أن مشاقة الرسول إنما هي مشاقة لله تعالى، ولذا قال في الآية فيمن يشاقّ الرسول ويتبع غير سبيل المؤمنين: ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾.

ولئلا يُظن أن مشاقة الرسول وحده لا تفضي إلى عقوبة الله حتى تقترن بمشاقة الله ذكر أن عاقبة من يشاقّ رسول الله جهنم وساءت مصيرًا.

هذا وقد قال سبحانه بعد الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦].

وهذه مشاقة لله وإن لم يذكر لفظ المشاقة.

وأما آية محمد وهي قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ﴾ فإن قوله في الآية: (إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله) إنما هي مشاقة لله في المعنى.

---

(١) انظر روح المعاني ٥/ ١٣٨ وما بعدها.

فالآية في مشاقة الله ومشاقة رسوله .

فكل تعبير مناسب لسياقه الذي ورد فيه بحسب نوع المشاقة ودرجتها والله أعلم .

* * *

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴾ [محمد: ٣٣] .

* * *

كرر لفظ الطاعة مع الرسول فقال: ﴿ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾ .

وفي مواطن أخرى لا يكرر الطاعة مع الرسول فيقول مثلاً: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾ [آل عمران: ١٣٢] .

ومن الملاحظ أنه حيث كرر لفظ الطاعة مع الرسول فإن السياق ورد فيه ذكر الرسول. وحيث لم يكرر فالسياق لله وحده[١] .

وقد كرر لفظ الطاعة في هذه الآية ، وقد ذكر الرسول قبلها فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ . . . ﴾ .

والآية كأنها مقابلة للآية قبلها وهي قوله سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴾ [محمد: ٣٢] «فوصف الإيمان في قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ مقابل وصف الكفر في قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ .

وطاعة الله مقابل الصد عن سبيل الله .

وطاعة الرسول ضد مشاقة الرسول .

والنهي عن إبطال الأعمال ضد بطلان أعمال الذين كفروا»[٢] .

---

(١) انظر كتابنا (التعبير القرآني) باب التوكيد ١٥٧ ـ ١٥٨ .

(٢) التحرير والتنوير ٢٦/ ١٢٧ .

وقوله: ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾.

أي بالمعاصي المحبطة للعمل كالرياء والمن والأذى على الصدقة وغيرها من المبطلات كما قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

جاء في (تفسير أبي السعود): «ولا تبطلوا أعمالكم بما أبطل هؤلاء أعمالهم من الكفر والنفاق والعجب والرياء والمن والأذى ونحوها»[١].

* * *

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [محمد: ٣٤].

* * *

لقد أكد عدم المغفرة لهؤلاء الذين ماتوا وهم كفار فقال: ﴿فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ فجاء بالفاء في خبر الاسم الموصول لتشبيهه بالشرط.

والفاء تقترن بجواب الاسم الموصول المشبه بالشرط، وهي قد تكون للتوكيد إضافة إلى ذلك. ألا ترى أنه قال في آية أخرى في السورة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [محمد: ٣٢].

فقال: ﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ ولم يأت بالفاء، فلم يقل (فلن يضروا الله شيئًا) بخلاف الآية الرابعة والثلاثين، ذلك أن المذكورين فيها ماتوا وهم كفار، فأكد عدم المغفرة لهم، بخلاف الآية الأخرى.

ونحو ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ

---

(١) تفسير أبي السعود ٦/ ١٦٢.

أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾ [آل عمران: ٩١] ، وقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٠] .

فقال في الذين ماتوا وهم كفار: (فلن يقبل) بالفاء. ولم يقل نحو ذلك فيمن لم يذكر فيهم أنهم ماتوا على ذلك[١] .

* * *

﴿ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٥] .

* * *

﴿ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ﴾ .

أي «لا تضعفوا ولا تذلوا للعدو، ولا تدعوا إلى السلم وهو المسالمة»[٢] والصلح.

﴿ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ .

أي «الأغلبون لأعدائكم الأقهرون لهم»[٣] .

«وقوله: ﴿ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ يحتمل موضعين:

أحدهما: أن يكون في موضع الحال، والمعنى: لا تهنوا وأنتم بهذه الحال.

والمعنى الثاني: أن يكون إخبارًا مقطوعًا... وقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ

---

(١) انظر كتابنا (معاني النحو) باب (تشبيه الاسم الموصول بالشرط) ٤/ ١٠٩ وما بعدها.

(٢) الكشاف ٣/ ١٣٤ ، وانظر البحر المحيط ٨/ ٨٥.

(٣) انظر الكشاف ٣/ ١٣٤ ، أضواء البيان للشنقيطي ٧/ ٦٣٢ .

مَعَكُمْ﴾ معناه بنصره ومعونته»[١].

﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾.

أي ناصركم.

جاء في (روح المعاني): «﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ أي ناصركم، فإن كونهم الأغلبين وكونه عز وجل ناصرهم من أقوى موجبات الاجتناب عما يوهم الذل والضراعة»[٢].

﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾.

أي لن يظلمكم[٣]، أو لن ينقصكم[٤].

وهو «من وترت الرجل إذا قتلت له قتيلاً من ولد أو أخ حميم أو حربته»[٥]. «أو أخذت له مالاً. جاء في الحديث «من فاتته العصر فكأنما وتر أهله وماله»»[٦].

واختيار الفعل (يتر) مضارع (وتر) اختيار في غاية اللطف والمناسبة في هذا المقام، ذلك أنهم في حالة حرب وقتال وقد نهاهم عن الدعوة إلى السلم، والحرب مظنة القتل فقال: ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ أي لن يقتلها ويترككم إياها، وهي أعز شيء وأغلى ما يملكون.

قد تقول: لقد قال هنا: ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾.

وقال في آية أخرى في السورة: ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾

---

(١) المحرر الوجيز ٧/ ٦٦٠.
(٢) روح المعاني ٢٦/ ٨٠.
(٣) البحر المحيط ٨/ ٨٥.
(٤) لسان العرب (وتر).
(٥) الكشاف ٣/ ١٣٤.
(٦) معاني القرآن للفراء ٣/ ٦٤.

[محمد: ٤] ، فقال: ﴿ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَلَهُمْ ﴾ وهم في حالة قتال أيضًا ، فما الفرق؟

والجواب أولاً أن قوله: ﴿ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَلَكُمْ ﴾ خاطبهم وهم أحياء ، والحي هو الذي يوتر وليس الميت .

وأما في الآية الأخرى فالمذكورون أموات قد قتلوا ، فلا يصح أن يقال (ولن يترهم أعمالهم) لأن الميت لا يشعر بالوتر .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أنه قال بعد قوله: ﴿ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَلَهُمْ ﴾ : ﴿ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴾ ، والهداية نقيض الإضلال وليست نقيض الوتر .

فلما قال: ﴿ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَلَهُمْ ﴾ كانت عاقبة عدم إضلال الأعمال أن يهديهم إلى الجنة كما ذكرنا في تفسيرنا للآية .

فناسب كل تعبير موضعه .

* * *

﴿ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴾ [محمد: ٣٦ - ٣٧] .

* * *

مناسبة هذه الآية لما قبلها أنه لما نهى عن الدعوة إلى السلم في الآية السابقة ذكر في هذه الآية أن الدنيا إنما هي لعب ولهو فلا تتركوا الجهاد بسببها وتركنوا إليها ، فذلك مما يضعفكم ويجعل العدو يستهين بكم .

جاء في (المحرر الوجيز): «قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾

تحقير لأمر الدنيا ، أي: فلا تهنوا في الجهاد بسببها» (١) .

وجاء في (التحرير والتنوير): «﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ وهذا تحذير من أن يحملهم حب لذائذ العيش على الزهادة في مقابلة العدو ويتلو إلى مسالمته فإن ذلك يغري العدو بهم» (٢) .

وقدم اللعب على اللهو «لأن اللعب زمانه الصبا ، واللهو زمانه الشباب ، وزمان الصبا مقدم على زمان الشباب» (٣) .

«فبدأ باللعب ، وهو ما يقع في دور الطفولة والصبا ، وهذا هو الأصل ، وإن كان يطلق اللعب أحيانًا على نقيض الجد كقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ [التوبة: ٦٥] وقوله: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ [الزخرف: ٨٣] .

ثم ذكر اللهو وهو ما يكون في دور الفتوة والشباب. ثم إن اللهو أعم من اللعب ، فاللهو يقع للصغير والكبير» (٤) .

قد تقول: لقد قدم ربنا اللهو على اللعب في آيتين هما قوله تعالى في الأعراف: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالُوٓا إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأعراف: ٥٠ ـ ٥١] .

وقوله في سورة العنكبوت: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤] .

---

(١) المحرر الوجيز ٧/ ٦٦١.

(٢) التحرير والتنوير ٢٦/ ١٣٣.

(٣) البرهان للكرماني ١٥٣ وانظر ملاك التأويل ١/ ٣١٤ وما بعدها.

(٤) على طريق التفسير البياني ج١/ ٣٢٢ وما بعدها.

فلم ذاك؟

فنقول: أما آية الأعراف فهي في قول أصحاب الجنة لأصحاب النار.

وأصحاب النار هم من المكلفين وليسوا من الأطفال أو الصبية.

واللهو هو المناسب لأعمارهم كما ذكرنا، فقدم اللهو للمناسبة.

جاء في (ملاك التأويل) في هذه الآية: «أما آية الأعراف فإنها من قول المؤمنين أهل الجنة إخبارًا عن حال الكافرين الموجبة لتعذيبهم. فقدموا في الذكر اللهو الشاغل عن الاستجابة الجاري مع سن التكليف والمساوق له الثاني عن اللعب. إذ وجود اللعب أولاً في السن التي معظمها غير سن التكليف...

ولم يذكر اللعب أولاً لأنه جار في البدأة وحين لا تكليف» (١).

وأما آية العنكبوت فالسياق يقتضي هذا التقديم فيها «ذلك أنه تقدم الآية قوله: ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓۚ﴾. والرزق مدعاة إلى الالتهاء به والمشغلة لجمعه لا إلى اللعب، ولذا قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ [المنافقون: ٩].

فالذي بسط له رزقه ملته بجمعه، والذي قدر عليه رزقه ملته بالحصول عليه» (٢).

وجاء في (ملاك التأويل): «وأما آية العنكبوت فإنه تقدم قبلها قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ﴾ ولا يُسأل عن هذا ويجيب إلا من جاوز سن اللعب وبلغ السن التي بها يتعلق التكليف للمخاطب ويصح خطابه وحسابه على تفريطه. فناسب

---

(١) ملاك التأويل ١/ ٣١٦.

(٢) على طريق التفسير البياني ١/ ٣٢٥.

ذلك من ذكر الحياة الدنيا ما يساوق تلك السن»[(١)].

ومن الملاحظ أنه سبحانه قال في آية محمد: ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ وقال في الأنعام: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ٣٢].

فجاء في آية محمد بـ (إنما)، وفي آية الأنعام بـ (ما) و(إلا).

و(إنما) تفيد الحصر مثل (ما وإلا).

جاء في (لسان العرب): «ومعنى (إنما) إثبات لما يذكر بعدها ونفي لما سواه كقوله: (إنما يدافع عن أحسابهم أنا أو مثلي)، المعنى ما يدافع عن أحسابهم إلا أنا أو من هو مثلي»[(٢)].

وقد تقول: إذا كان معناهما واحدًا فلماذا جاء بـ (إنما) في آية محمد، وبـ (ما وإلا) في آية الأنعام؟

والجواب: أن ثمة فرقًا بين استعمال (إنما) و(ما وإلا) كما قيل، فـ(إنما) تستعمل لما لا ينكره المخاطب ولا يدفع صحته.

وأما (ما وإلا) فتستعمل لما ينكره المخاطب ويشك فيه.

جاء في (دلائل الإعجاز) لعبد القاهر الجرجاني: «اعلم أن موضوع (إنما) على أن تجيء خبرًا لا يجهله المخاطب ولا يدفع صحته، أو لما نزل هذه المنزلة، تفسير ذلك أنك تقول للرجل: إنما هو أخوك وإنما هو صاحبك القديم، لا تقوله لمن يجهل ذلك ويدفع صحته ولكن لمن يعلمه ويقرّ به، إلا أنك تريد أن تنبهه للذي عليه من حق الأخ وحرمة الصاحب...

وأما الخبر بالنفي والإثبات نحو (ما هذا إلا كذا وإن هو إلا كذا)

---

(١) ملاك التأويل ١/٣١٦ـ٣١٧.

(٢) لسان العرب (أنن) وانظر دلائل الإعجاز ٢٥٠ـ٢٥٣، الإتقان ٢/٤٩.

فيكون للأمر ينكره المخاطب ويشك فيه. فإذا قلت: ما هو إلا مصيب أو ما هو إلا مخطئ قلته لمن يدفع أن يكون الأمر على ذلك»[١].

والخطاب في آية محمد للمؤمنين كما هو ظاهر من سياق الآيات في قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ وقوله: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾.

فهم لا ينكرون ما في الآية من أن الحياة لعب ولهو.

وأما آية الأنعام فالكلام في سياق الكافرين، وقبلها قوله سبحانه: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٩ ـ ٣٠].

فهم ينكرون أن تكون الدنيا لهوًا ولعبًا وأن الدار الآخرة خير للذين يتقون، ولذا قال سبحانه مخاطبا لهم: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

فناسب أن يخاطبهم بالنفي والإثبات فيقول: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾.

فكل تعبير مناسب لسياقه.

ونحوه ما جاء في آية العنكبوت وهو قوله سبحانه: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤] فإنها في سياق الكلام على الكافرين، فقد قال قبل الآية: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٣].

وقال بعدها: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ

---

(١) دلائل الإعجاز ٢٥٤ ـ ٢٥٥ وانظر شرح المختصر للتفتازاني ٨٦ ـ ٨٧.

إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥ ـ ٦٦].

فناسب كل تعبير سياقه الذي ورد فيه.

﴿وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ﴾.

أي: وإن تستمروا على الإيمان وتتقوا ربكم وذلك بالعمل بما أمر الله به وتنتهوا عما نهى عنه يؤتكم أجوركم.

وقدم الإيمان على التقوى لأنه الأول ولأنه لا تقوى مع عدم الإيمان.

﴿وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾.

«أي لا يسألكم جميعها إنما يقتصر على ربع العشر»(١) وهو الزكاة.

«وقيل إنما يسألكم أمواله لأنه هو المالك لها حقيقة وهو المنعم بإعطائها»(٢).

جاء في (روح المعاني): «والمعنى إن تؤمنوا لا يسألكم جميع أموالكم... وفيه مقابلة حسنة لقوله: ﴿يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ﴾ كأنه قيل: يعطيكم كل الأجور ويسألكم بعض المال وهو ما شرعه سبحانه من الزكاة... وقيل: أي لا يسألكم ما هو مالكم حقيقة وإنما يسألكم ماله عز وجل، وهو المالك لها حقيقة، وهو جل شأنه المنعم عليكم بالانتفاع بها»(٣).

* * *

(١) الكشاف ٣/ ١٣٤.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٨٦.

(٣) روح المعاني ٢٦/ ٨١.

﴿ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴾ [محمد: ٣٧] .

* * *

﴿ فَيُحْفِكُمْ ﴾ .

أي يبالغ في السؤال .

والإحفاء أشد السؤال والإلحاح فيه .

جاء في (الكشاف): «﴿ فَيُحْفِكُمْ ﴾ أي يجهدكم ويطلبه كله ، والإحفاء المبالغة وبلوغ الغاية في كل شيء ، يقال: أحفاه في المسألة إذا لم يترك شيئًا من الإلحاح» [١] .

﴿ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴾ .

أي بغضكم وعداوتكم وأحقادكم ، فإن الإحفاء في سؤال الأموال يخرج الأحقاد والضغائن .

جاء في (الكشاف): «أي تضطغنون على الرسول ﷺ وتضيق صدوركم لذلك وأظهرتم كراهتكم ومقتكم لدين يذهب بأموالكم» [٢] .

والفاعل في قوله: ﴿ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴾ يحتمل أن يكون الله ، ويحتمل أن يكون البخل ، أي: يخرج البخل أضغانكم [٣] .

وإضافة الأضغان إلى ضميرهم تدل على أن الإنسان منطوٍ على أوصاف منها الأضغان ، وتخرج في مواقف خاصة تدعوها إلى الخروج شأن الأوصاف الأخرى من الحب والكره وغيرها .

جاء في (نظم الدرر): «وقد دلّ إضافة الأضغان إلى ضميرهم أن كل

---

(١) الكشاف ٣/ ١٣٤ .

(٢) الكشاف ٣/ ١٣٤ .

(٣) تفسير أبي السعود ٦/ ١٦٣ ، المحرر الوجيز ٦/ ١٤٤ ، تفسير القرطبي ١٦/ ٢٥٧

إنسان ينطوي بما له من النقصان على ماجبل عليه من الأضغان إلا من عصم الرحيم الرحمن»[١].

* * *

﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴾ [محمد: ٣٨].

* * *

﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾.

كرر (ها) التنبيه فقال: ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ للأهمية، وذلك أن تكرار التنبيه يفيد الزيادة في التنبيه، وهو يفيد التوكيد عند النحاة[٢].

فإنه يقال (ها أنتم أولاء) من دون تكرار للتنبيه وذلك نحو قوله تعالى: ﴿ هَٰٓأَنتُمْ أُو۟لَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ ﴾ [آل عمران: ١١٩] فلم يكرر (ها) التنبيه.

كما يقال (هاأنتم هؤلاء) بتكرار التنبيه كآية محمد هذه، ونحو قوله تعالى: ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ [آل عمران: ٦٦].

إن تكرار التنبيه في الآيات يفيد زيادة التنبيه ويفيد التوكيد[٣] كما ذكرنا.

وقد كرر التنبيه في آية محمد هذه للأهمية، وذلك أنه حذر المتولين عن

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ٧/ ١٨٠.

(٢) انظر همع الهوامع ١/ ١٧٦ وانظر البحر المحيط ٢/ ٤٨٦ قوله تعالى: (هاأنتم هؤلاء).

(٣) انظر كتابنا (معاني النحو) ج١/ ٩٣ ومابعدها.

الإنفاق في سبيل الله باستبدال بهم قومًا غيرهم فقال ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ وهي عقوبة شديدة ، فاستدعى ذلك الزيادة في التنبيه.

وقوله: ﴿ لِتُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يعني جميع وجوه البر من النفقة في الجهاد والزكاة وغير ذلك من وجوه البر.

جاء في (تفسير الخازن): «﴿ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قيل: أراد به النفقة في الجهاد والغزو ، وقيل: المراد به إخراج الزكاة وجميع وجوه البر ، والكل في سبيل الله» [(١)].

﴿ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ﴾

(عن) حرف جر معناه المجاوزة أي الابتعاد وذلك نحو قولنا (وضعته عنه) أي أبعدته عنه بعد أن كان عليه ، بخلاف (وضعه عليه) ، قال تعالى: ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧] قيل: ومعنى (يبخل عن نفسه) يبعد الخير عن نفسه بالبخل[(٢)].

وقيل «أي إن ذلك البخل ضرر عائد إليه فلا تظنوا أنهم لا ينفقونه على غيرهم بل لاينفقونه على أنفسهم ، فإن من يبخل بأجرة الطبيب وثمن الدواء وهو مريض فلايبخل إلا على نفسه» [(٣)].

وجاء في (التحرير والتنوير) أن معنى قوله ﴿ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ «إذ يتمكن عدوه من التسلط عليه فعاد بخله بالضرر عليه».

ويحتمل أن يكون المعنى: «فإنما يبخل عن نفسه بحرمانها ثواب الإنفاق.

---

(١) تفسير الخازن ٥/ ٤٣٠ وانظر تفسير أبي السعود ٦/ ١٣٦ ، تفسير القرطبي ١٦/ ٢٥٨.

(٢) التصريح ٢/ ١٥.

(٣) التفسير الكبير للرازي ١٠/ ٦٣.

وفعل (بخل) يتعدى بـ (عن) لما فيه من معنى الإمساك.

ويتعدى بـ (على) لما فيه من معنى التضييق على المبخول عليه. وقد عدي هنا بحرف (عن)» [١].

﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾.

عرّف الغني بـ (أل) للحصر فإنه هو الغني لا غيره على الحقيقة.

﴿وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ ليس عندكم شيء إلا ما يعطيكموه ربنا سبحانه، فالمال ماله على الحقيقة. جاء في (التحرير والتنوير) «فالله الغني المطلق، والغني المطلق لا يسأل الناس مالاً في شيء.

والمخاطبون فقراء فلا يطمع منهم البذل، فتعين أن دعاءهم لينفقوا في سبيل الله دعاء بصرف أموالهم في منافعهم كما أشار إلى ذلك قوله: ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ﴾» [٢].

وجاء في (روح المعاني): «﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ﴾ لا غيره عز وجل. ﴿وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ الكاملون في الفقر، فما يأمركم به سبحانه فهو لاحتياجكم إلى ما فيه من المنافع التي لا تقتضي الحكمة إيصالها بدون ذلك، فإن امتثلتم فلكم، وإن توليتم فعليكم» [٣].

قد تقول: لقد قال سبحانه في موطن آخر: ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥].

فقال: ﴿أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ ولم يقل مثل ذلك في آية محمد.

وقال في آية فاطر: ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٦/ ١٣٢.

(٢) التحرير والتنوير ٢٦/ ١٣٨.

(٣) روح المعاني ٢٦/ ٨٢.

وقال في آية محمد: ﴿وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ﴾ ولم يذكر (هو) ولم يذكر صفة (الحميد).

فلم ذاك؟

والجواب أن كل تعبير مناسب لسياقه الذي ورد فيه.

فإن سورة فاطر ذكر فيها نعم الله على الإنسان وأنه لا منعم ولا رازق سواه، فقد قال سبحانه في أوائل السورة: ﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٢ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ﴾ [فاطر: ٢ ـ ٣].

فالناس هم الفقراء إلى الله ليس لهم من رازق سواه ولا منعم سواه، ولم يذكر نحو ذلك في آية محمد.

وذكر طرفًا من مظاهر نعمه بقوله: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ [فاطر: ٩].

وقوله: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡبَحۡرَانِ هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ سَآئِغٞ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞۖ وَمِن كُلٍّ تَأۡكُلُونَ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُونَ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَاۖ وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [فاطر: ١٢].

ثم قال: إن الذين يدعون من دون الله ما يملكون من قطمير فقال: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ۝١٣ إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ﴾ [فاطر ١٣ ـ ١٤].

فذكر أنه المالك وحده وأنه الرازق وحده وهو مالك السماوات والأرض فناسب أن يقول: ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ﴾ ولم يذكر نحو ذلك في سياق آية محمد.

وقال (الحميد) أي المستحق للحمد على جهة الثبوت، فقد ذكر نعمه على عباده فناسب أن يحمدوه على نعمه.

وأما في آية محمد فقد حذرهم وقال: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ فلا يناسب ذكر (الحميد) على هذا، فهذا تحذير لهم بأن يذهبهم ويأتي بأحسن منهم.

ثم إنه في آية محمد دعاهم إلى الإنفاق في سبيل الله.

وأما في آيات فاطر فإنه هو الذي يعطيهم وهو المتفضل عليهم بالرزق والنعم. فناسب أن يقول في فاطر: ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾.

فناسب كل تعبير سياقه الذي ورد فيه.

﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾.

أي: وإن تتولوا عن الإيمان والتقوى وما أمر الله به من الإنفاق يستبدل قومًا غيركم، أي: يذهبكم ويأت بآخرين أفضل منكم. ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾ في التولي بل خيرًا منكم(١).

جاء في (المحرر الوجيز): «وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾ معناه في الخلاف والتولي والبخل بالأموال ونحو هذا»(٢).

وجاء في (النكت والعيون): «﴿لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾ فيه وجهان:

---

(١) زاد المسير ٥/ ٣٨٠.

(٢) المحرر الوجيز ٧/ ٦٦٢ ـ ٦٦٣.

أحدهما: يعني في البخل بالإنفاق في سبيل الله. . .

الثاني: في المعصية وترك الطاعة»[١].

وقد يقال: لقد قال سبحانه في سورة التوبة: ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا﴾ [التوبة: ٣٩] فزاد على الاستبدال العذاب فقال: ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ فلم ذاك؟

والجواب أن آية التوبة في الجهاد.

وأما آية محمد ففي الإنفاق في سبيل الله.

والجهاد أثقل وأهم لما فيه من حفظ مصالح المسلمين وانتشار الإسلام وإذلال أعدائه. والقعود عنه أعظم وأكبر مما في آية محمد، فإنه قد يكون سببًا لظهور العدو عليهم، فناسب الزيادة في التحذير بالعذاب الأليم، وهذا العذاب الأليم كما قيل «هو في الدنيا باستيلاء العدو، وبالنار في الآخرة»[٢].

وجاء في (روح المعاني) «﴿يُعَذِّبْكُمْ﴾ أي الله عز وجل (عذاباً أليماً) بالإهلاك بسبب القحط وظهور عدو»[٣].

فناسب كل تعبير موضعه الذي ورد فيه والله أعلم.

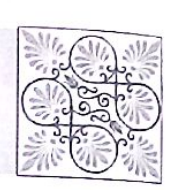
* * *

---

(١) النكت والعيون ٤/ ١٣٧.

(٢) تفسير القرطبي ٨/ ١٤٢.

(٣) روح المعاني ١٠/ ٩٦.



المراجع

- الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ، ط٣/ ١٣٧٠هـ ـ ١٩٥١م

- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن لمحمد الأمين الشنقيطي ـ دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع ـ الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ.

- الإيضاح للخطيب القزويني ـ تحقيق وتعليق لجنة من أساتذة كلية اللغة العربية بالجامع الأزهر ، مطبعة السنة المحمدية.

- البحر المحيط لأبي حيان ـ ط١ سنة ١٣٢٨هـ ـ مطبعة السعادة بمصر.

- البرهان في علوم القرآن للزركشي تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم ط١/ ١٣٧٦هـ ـ ١٩٥٧م ـ دار إحياء الكتب العربية.

- البرهان في متشابه القرآن لمحمود بن حمزة الكرماني ـ راجعه أحمد عز الدين عبد الله خلف الله ـ ط٢/ ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م ـ دار الوفاء للطباعة والنشر ـ المنصورة ، مصر.

- بلاغة الكلمة في التعبير القرآني ـ الدكتور فاضل صالح السامرائي ـ دار عمار للنشر والتوزيع ـ عمان ـ الأردن.

- تاج العروس شرح القاموس لمحمد مرتضي الزبيدي ـ منشورات مكتبة الحياة ـ بيروت ـ تصوير الطبعة الأولى بالمطبعة الخيرية بمصر ١٣٠٦ هـ.

- التحرير والتنوير ـ محمد الطاهر بن عاشور ـ دار سحنون للطباعة والنشر ـ تونس.

- التعبير القرآني - الدكتور فاضل صالح السامرائي - دار عمار للنشر والتوزيع -عمان - الأردن.

- تفسير أبي السعود - لأبي السعود بن محمد العمادي - تحقيق عبد القادر أحمد عطا - مكتبة الرياض الحديثة - الرياض.

- تفسير الثعالبي - عبد الرحمن الثعالبي - تحقيق الشيخ علي محمد معوض وآخرين - دار إحياء التراث العربي - بيروت - لبنان - الطبعة الأولى ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

- تفسير الخازن - علاء الدين البغدادي المشهور بالخازن - ضبطه عبد السلام محمد علي شاهين - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

- تفسير القرآن العظيم لابن كثير - دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه.

- تفسير القرطبي - دار إحياء التراث العربي.

- التفسير القيم لابن القيم - جمع محمد أويس الندوي - مطبعة السنة المحمدية ١٣٨٦هـ - ١٩٧٣م.

- التفسير الكبير لفخر الدين الرازي - المطبعة البهية - مصر

- التناسب بين السور في المفتتح والخواتيم - د. فاضل صالح السامرائي - دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع - ط١/ ١٤٣٢هـ

- الجملة العربية والمعنى - د. فاضل صالح السامرائي - دار الفكر - عمان - الأردن.

- حاشية الصبان على شرح الأشموني - طبعت مع شرح الأشموني - دار إحياء الكتب العربية -عيسى البابي الحلبي وشركاه.

- الدر المنثور في التفسير المأثور للسيوطي - تحقيق عبد الله بن عبد

المحسن التركي - مركز هجر للبحوث والدراسات العربية والإسلامية - القاهرة - ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.

- دلائل الإعجاز - عبد القاهر الجرجاني - ط٣ أصدرتها دار المنار بمصر سنة ١٣٦٦هـ.

- شرح ابن يعيش للمفصل للزمخشري - طبع ونشر إدارة الطباعة المنيرية.

- شرح التصريح على التوضيح لخالد بن عبد الله الأزهري - دار إحياء الكتب العربية.

- شرح رضي الدين الإسترابادي على الكافية لابن الحاجب.

- شرح المختصر على تلخيص المفتاح للتفتازاني - طهران.

- على طريق التفسير البياني - الدكتور فاضل صالح السامرائي - دار الفكر - عمان - الأردن.

- فتح القدير لمحمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني - ط١ - مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر سنة ١٣٤٩هـ.

- الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري - نشر مكتبة القدسي سنة ١٣٥٣هـ.

- القاموس المحيط - لمجد الدين الفيروز ابادي - ط٥/ شركة فن الطباعة - مصر.

- كتاب سيبويه - مصور على طبعة بولاق - نشر مكتبة المثنى ببغداد.

- الكشاف عن حقائق التنزيل لجار الله الزمخشري مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر سنة ١٣٦٧هـ- ١٩٤٨.

- لسان العرب لابن منظور - مصور على طبعة بولاق.

- لمسات بيانية للدكتور فاضل صالح السامرائي - دار عمار - عمان - الأردن.

- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز - أبو محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي - تحقيق وتعليق الرحّالة الفاروق وآخرين - وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - قطر - الطبعة الثانية ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.

- المصباح المنير للفيومي - المكتبة العلمية - بيروت.

- معاني القرآن لأبي زكرياء يحيى بن زياد الفراء - مطبعة دار الكتب المصرية للتأليف والترجمة ١٣٧٤هـ - ١٩٥٥م.

- معاني النحو للدكتور فاضل صالح السامرائي - دار الفكر - عمان - الأردن. الطبعة الخامسة - ١٤٢٣هـ - ٢٠١١م.

- المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني - طهران.

- المفصل في علم العربية للزمخشري نشره محمود توفيق - مطبعة حجازي بالقاهرة.

- ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل لأبي جعفر أحمد بن الزبير الغرناطي - تحقيق الدكتور محمود كامل أحمد - دار النهضة العربية للطباعة والنشر ببيروت - ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

- من أسرار البيان القرآني للدكتور فاضل صالح السامرائي - دار الفكر - عمان - الأردن.

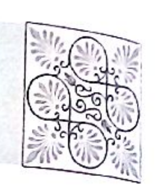
- النشر في القراءات العشر لابن الجزري، مطبعة مصطفى محمد بمصر.

- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور لبرهان الدين البقاعي - دار الكتاب الإسلامي بالقاهرة.

- النكت والعيون للماوردي - دار الكتب العلمية - بيروت.

- همع الهوامع شرح جمع الجوامع لجلال الدين السيوطي - ط١ سنة ١٣٢٧هـ - مطبعة السعادة بمصر.

* * *



الفهرس

الصفحة

الموضوع

* * *

موضوع ذو أهمية خاصة، يستحق التصنيف فيه في أسفار كبيرة؛ لأنه أمر متألق في عموم المواطن من مواضع التعبير في القرآن الكريم، كالذكر والحذف، والتقديم والتأخير، والتوكيد وعدمه، وفواصل الآي، والالتفات، واختيار لفظة على أخرى، وغير ذلك من مواطن التعبير.

وأورد المصنِّف الأمثلة الدالة على هذا الموضوع القيّم؛ المتعلق بالإعجاز القرآني، وبيانه الذي أعجز الفصحاء والبلغاء عن الإتيان بمثل آية واحدة منه.

لقد راعى البيان الإلهي المقام والموضوع في التعبير مراعاة منقطعة النظير؛ لأسرارٍ قد يتوصل الدارس فيها إلى الوقوف على جماليات بعضها، بينما يبقى الكثير من الأسرار الأخرى بانتظار من يقف عليها، ويدلّ طلاب العلم على مضامين جمالها ومواضعها التي لا يماثلها بيان على الإطلاق.


ISBN: 978-614-415-149-5



www.ibn-katheer.com
info@ibn-katheer.com